الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

Abul Azayem

www.abulazayem.com

Version 2.2 / April, 2024

حديث الجمعة

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدرس الأول

التوبة والتائبون

تعريف التوبة

هى الإقلاع عن الباطل قولاً وعملاً واعتقاداً، والرجوع إلى الحق قولاً وعملاً واعتقاداً، ولا تقشعر الجلود ولا تميل القلوب للتوبة إلا بولاية من الله سبحانه وتعالى للعبد، وعلم يتفضل به عليه يكشف له به الستار عن الباطل وقبحه، وعن الحق والخير الذى ينال به الفوز حتى تحل الرغبة فى الحق محل الرغبة عنه، والمسارعة إلى الخير محل المسارعة إلى الباطل، وعندها يتمثل للسالك قبح عمله وسوء فعله، وما فاته من الخير العظيم فى زمان معصيته، وما ارتكبه من الإثم العظيم وتعديه حدود ربه سبحانه وتعالى، ويتمثل ما كان يناله من الخير، وما اكتسبه من الآثام، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويخرج بالعزم من عوائده ومألوفاته ومخالفة أمر ربه، وتضيق عليه نفسه فيفر منها إلى الله تعالى بالحزن والندم الشديدين، حتى تهب عليه نسمات وسعة الفضل العظيم، وشامل الرحمة ونور غافر الذنب وقابل التوب.

فالتوبة هى أولاً أن يتوب الله على العبد بما يرد عليه منه سبحانه وتعالى من نور العلم الذى يُشعر قلبه بفضل الله عليه، وحسن عنايته به فى الدنيا والآخرة، ويُشهده سوء صنيعه مع الله سبحانه وتعالى، وظلمه لنفسه بمخالفته أمره سبحانه، فيُقبل تائباً على ربه، ولو لم تسبق التوبة من الله للعبد فضلاً منه وكرماً لم يستطع العبد أن يتوب، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، فالتوبة عن الكشف والوجد دليل عناية الله بالعبد، وبرهان على إقباله سبحانه وتعالى عليه، والتائبون قليلون لأن أهل محبة الله قليلون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، ودليل ما قررت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء ١٧، فقوله: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ دليل ما قررته أن فاعل السيئات جاهل، ولو علم أنها ذنوب، لجهله بعظمة من

خالفه وعقوبته عليها، ولا توبة لتوبته ما دام جاهلاً هذا الجهل حتى يَرِد عليه العلم من الله فيكشف له حقيقة قبح عمله، وسوء مواجهته لربه. وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أى عند انكشاف الحق لقلوبهم بما ورد عليها من الله تعالى، وهذا لا ينافى ما قرره أهل التفسير فى قوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ أى قبل الموت بزمن يسع التوبة متعلقين لها ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وتوبة الله تعالى عليهم أن يورد عليهم هذا الوارد الربانى، ويوفقهم للاعتراف والندم والعزم على عدم العودة إلى المعصية حتى يقبل منهم توبتهم، ولديها يبدل أعمالهم السيئة بأعمال حسنة بتوفيقه. وعقائدهم الباطلة بعقائد القرآن بعنايته. وأحوالهم الشريرة بأحوال الصديقين بحسن توجهاته، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ الفرقان ٧٠، ولديها يكونوا أبدالاً للصديقين وأئمة للمتقين، يحبهم الله تعالى ويحبونه.

الندم توبة

أسأل الله أن يوفقنى وإياك للتوبة النصوح، الخالصة لذاته الأحدية من الذنوب التى توجب النقم وتغير النعم وتحبس غيث السماء وتديل الأعداء، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور ٣١، عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب)، ثم تلا ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، قيل يا رسول الله: وما علامة التوبة؟ قال الندامة. عن أنس بن مالك أيضاً أن النبى ﷺ قال: (ما من شئ أحب إلى الله من شاب تائب)، والتوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، وحقيقة الرجوع إلى الله والندم على ما فات:

إلى قابل التوب المجيب أنيب ... واسأله فضلاً على يتوب
يطهر أعضائى يزكى لطيفتى ... لتشرق لى بعد الحجاب غيوب
فإنى أرى أمارتى فوق طاقتى ... يمثل لى حال المتاب رقيب
أيا رب أعضائى ونفسى وشهوتى ... أيا رب طهرها فأنت مجيب
وعفواً عن الزلات والذنب كله ... تنزل ولياً أنت أنت حسيب

وهب لى العنـايـة والـولايـة والهـدى أمتنـى على الإسلام فهـو نـصيب
وقلبـى فـطمئنه بـذكـرك أغننـى بفـضلك يـا مـولاى أنت قـريب

قال النبى ﷺ: (الندم التوبة). فأهل الأصول من أهل السنة قالوا شرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء: الندم على ما عمل من المخالفات. وترك الزلة فى الحال. والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى. فهذه الأركان لابد منها حتى تصح التوبة.

أقوال الصوفية فى التوبة

سُئل ذو النون المصرى عن التوبة فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وكان عبد الله بن على بن محمد التميمى يقول: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات. وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يطيب لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ التوبة ١١٨، وقال ابن عطاء: التوبة توبتان، توبة الإنابة وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرم الله تعالى. وقيل لأبى حفص: لِمَ يبغض التائب الدنيا؟ قال لأنها دار باشر فيها الذنوب، فقيل له أيضاً: هى دار أكرم الله فيها التائب بالتوبة، فقال: إنه من الذنب على يقين، ومن قبول توبته على وجل. وقال رجل لرابعة: إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى فلو تبت هل يتوب علىَّ. فقالت: لا... بل لو تاب عليك لتبت.

قال يحيى بن معاذ: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. وعن أبى عمر الأنماطى: ركب على بن عيسى الوزير فى موكب عظيم فجعل الغرباء يقولون: من هذا؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق: إلى متى تقولون: من هذا، من هذا. هذا عبد سقط من عين الله فابتلاه الله بما ترون، فسمع على بن عيسى ذلك فرجع إلى منزله، واستعفى من الوزارة، وذهب إلى مكة وجاور بها. قال الله تعالى فى خطاب العموم: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور ٣١، معناه: ارجعوا إليه من هوى نفوسكم، ومن ملازمة شهواتكم حتى تظفروا

بمعية ربكم عز وجل فى نعيم لا زوال له ولا نفاد، ولكى تسعدوا بجنة عالية قطوفها دانية وتنجو من النار، فهذا هو الفلاح.

التوبة النصوح

قال تعالى فى مخاطبة الخصوص: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ التحريم ٨، فنصوحاً معناه خالصة لله تعالى، وهى الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب، وأن لا يحدث نفسه بعودة إلى ذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم كما ارتكبه لأجل هواه الذميم، مجمعاً عليه بقلبه وشهوته، فمتى أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى، وعمل خالص مستقيم مع السُنة، فقد خُتم له بحسن الخاتمة، وحينئذ تدركه الحسنى السابقة، وهذه هى التوبة النصوح، وبها يكون هذا العبد هو التواب المتطهر الحبيب الذى سبقت له من الله الحسنى، ومن تداركه ربه بتوبة رحمه بها من سابقة السوءى، وليس أحب إلى الإنسان الكامل من أن يكون ممن ذكرهم الله فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، وكما قال ﷺ: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له). وسئل الحسن عن التوبة النصوح فقال: هى ندم بالقلب واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، والعزم على أن لا يعود إلى ذنب. وقال أبو محمد سهل رحمه الله: ليس من الأشياء ما هو أوجب على الخلق من التوبة، ولا عقوبة أألم عليهم من جهل علم التوبة. وكان يقول: من ظن أن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومن رضى بقوله فهو كافر. وقد جعل سيدنا على كرم الله وجهه ترك التوبة منزلاً للعمى، وقرنه باتباع الظن ونسيان الذكر، فقال: من عمى نسى الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بغير توبة نصوح. ففرض التوبة الذى لابد للتائب منه هو الإقرار بالذنب، والاعتراف بالظلم، ومقت النفس على الهوى، وترك الإصرار الذى كان عقده على عمل السيئات، وإصابة الحق بقدر طاقته ثم الندم على ما فات من السيئات.

❊ ❊ ❊

خصال التوبة

ومجمل ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال:

١ حق عليه أن لا يعصى الله تعالى.

٢ إن ابتلى بمعصية لا يصبر عليها.

٣ التوبة إلى الله تعالى منها.

٤ الندم على ما فرط منه.

٥ عقد القلب على الاستقامة على الطاعة إلى الموت.

٦ خوف العقوبة.

٧ رجاء المغفرة.

٨ الاعتراف بالذنب.

٩ اعتقاد أن الله تعالى قدر عليه ذلك وأنه عدل منه.

١٠ المتابعة بالعمل الصالح قال ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها).

والمتصف بتلك الخصال كلها هو التائب حقاً، ومن قصر فى صفة منها كانت توبته بقدر مجاهدته لنفسه، وإذا لاحظت عناية الله عبداً يسر له جميعها، وتفضل بمحبته سبحانه وتعالى له.

عمر العبد أمانة

قال بعض العارفين: إن الله تعالى يوحى إلى عبده سرين: أحدهما إذا ولد وخرج من بطن أمه، يقول له: عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك. وسر عند خروج روحه يقول: عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك

بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والحساب؟ فهذا داخل فى قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ المؤمنون ٨، وفى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ البقرة ٤٠، فعمر العبد أمانة عنده. إن حفظه فقد أدى الأمانة، وإن ضيعه فقد خان الله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يوسف ٥٢، وفى الخبر عن ابن عباس رضي الله عنه: (من ضيع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله). وسئل يحيى بن معاذ كيف يصنع التائب فقال: هو من عمره بين يومين، يوم مضى، ويوم بقى، فيصلحهما بثلاث. أما ما مضى فبالندم والاستغفار، وأما ما بقى فبترك اللبس وأهله، وصحبة الصالحين ومجالسة الذاكرين، والثالثة لزوم تصفية الغذاء، والدأب على العمل.

علامة صدق التوبة

ومن علامة صدق التوبة رقة القلب وغزارة الدمع. وفى الخبر: (جالسوا التوابين فإنهم أرق الناس أفئدة). ومن التحقق بالتوبة استعظام الذنوب كما جاء فى الخبر: (المؤمن الذى يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق الذى يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره)، وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت. أوحى الله إلى بعض أوليائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظمة مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها. فإنما عظمت الذنوب لعظمة المواجه بها، وكبرت فى القلوب لمشاهدة ذى الكبرياء، ومخالفة أمره بمزاولتها، فلم يصغر ذنب عند ذلك، ولذلك كانت الصغائر عند الخائفين كبائر.

وقال بعض الصحابة التابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر، كنا نعدها فى عهد النبى ﷺ من الموبقات. فلم يكونوا يعنون أن الكبائر التى كانت على عهد النبى ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى فى قلوبهم، ولم يكن ذلك فى قلوب من بعدهم.

* * *

حقيقة التوبة

قال بعض العارفين: حقيقة التوبة أن تضع ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين، وحالان لأهل مقامين، فأما ذكر الذنوب فطريق المريدين، وحال يحصل لهم بموجبها وبتذكرها الحزن الدائم، والخوف الملازم، وأما نسيان الذنوب شغلاً عنها بالذكر وما يقبل عليه من مزيد الأعمال، فطريق العارفين، وحال المحبين، ووجهة هؤلاء شهود التوحيد، وهو مقام فى التعرف، ووجهة الأولين مشاهدة التوقيف والتحديد، وهى مقام فى التعريف، ففى أى المقامين أقيم عبد قام بشهود وجهته، وعمل بحكم حالته، ومقام شهادة التوحيد أفضل عند العارفين من مقام مشاهد التعريف، وإن كانت هذه أوسع وأكثر إلا أنها فى أصحاب اليمين، وفى عموم المقربين، وشهادة التوحيد أضيق وأقل وأهله أعلى وأفضل، وهى فى المقربين وخصوص العارفين.

المعصية ظلمة فى القلب

قال بعضهم: إن العبد إذا عصى أظلم قلبه ظلمة يثور على القلب منها دخان يحجب الإيمان، فهو إذاً سبب حزن العبد الذى تسوءه سيئته، ويكون ذلك الدخان حجاباً له عن العلم والبيان كما تحجب السحابة الشمس فلا ترى، فإذا تاب العبد وأصلح انكشف الحجاب فيظهر الإيمان، فيأمر بالعلم كما تبرز الشمس من خدرها. ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين ١٤، قالوا هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب، ويصير الإيمان تحت الحجاب، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وعندها ينكس أعلاه أسفله إذا استكمل سواده، فحينئذ يكون قد مرد على النفاق فاطمأن له، وثبت عليه إلى أن ينظر الله تعالى إليه، فيعطف بفضله عليه.

مراتب الكفر

جعل سيدنا على كرم الله وجهه الغفلة إحدى مقامات الكفر، وقرنها بالعمى والشك وميل صاحبها عن الرشد، ووصفها بالحسرة، فقال فى الحديث الذى يروى من طريق أهل البيت،

قام رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما بنى؟ قال على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمى نسى الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، وغرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب، ومن شك تاه فى الضلالة، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب ودرء السيئة بالحسنة فى قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ القصص ٥٤، وقد جعل هذا من وصف العاملين الذين صبروا فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ القصص ٥٤.

مجالسة التوابين

هذا ما أحببت أن أورده عليك من أحكام التوبة ووصف التائبين، لتزن به أحوالك عند إنابتك إلى الله تعالى، ورجوعك إلى طاعته سبحانه، فإن وجدت ما أورده الله على التائبين من حلاوة الإقبال عليه ولذة مواجهته تعالى بلا تكلف منك فقل: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الأعراف ٤٣، وإن لم تجد من نفسك العون فتيقن أن ذلك من نزوع نفسك إلى حظ ترجوه عاجلاً أو آجلاً، أو لتوبتك على غير مشهد من مشاهد التوحيد، أو لشوب فى إخلاصك، فسارع يا أخى إلى مجالسة التوابين وسماع علومهم منهم، لتشرق على قلبك أنوار التوحيد، وتعرف قدر ما تفضل به عليك ذو الفضل العظيم، وعظيم ما اجترحته فى جانبه سبحانه وتعالى، حتى تنجذب نفسك بالكلية إلى الإنابة إلى الله، فتكون توبتك نصوحاً، وتوصف بأنك من التوابين، وتتلذذ بمحبة الله لك فتجدد التوبة لكل عمل تعمله، لعلمك بقدر نفسك وقدر عملك، ومعرفتك مقام ربك، ولو كان فى نظرك قربة لما تشهده فيه من عجزك عن القيام بواجب شكر المنعم المتفضل حتى تنبلج لك أنوار التوحيد، فيحصل البسط والأُنس، فتنسى ذنبك، وتقبل على ربك بظاهرك وباطنك، وتكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢.

❊ ❊ ❊

درجات التوبة

العامة يجددون التوبة عند حدوث الذنب، والخاصة يجددون التوبة عن أعمال البر لشهودهم التقصير فيها، وخاصة الخاصة يجددون التوبة بعد عمل القربات لشهودهم العمل لأنفسهم، لفهمهم التوحيد بالتوحيد، وهنا أمسك القلم عن توبة المحبوبين وإنابة المُرادين، لعلو مشاهدهم وخفاء مواجيدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الاسراء ٨٥، فإن العبارة لا تفى بمشاهدهم، والإشارة لا تبين مواهبهم التى تفضل الله بها عليهم، وإنما هو فضل الله العظيم يؤتيه من يشاء، وقد كشفت لك الستار عما يمكن أن يبلغه مريد الحق إذا عمل بعلمه، وما يورثه الله تعالى للعاملين بعلمهم علىٌّ عن أن يُسطر فى الأوراق، قال الله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ الأنفال ٢٩، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ الطلاق ٥، وكفى شرفاً بالتوبة أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يحب التوابين، ومن علم مقدار ما يتفضل الله به على من يحبه يعلم قدر التوبة ويسارع إليها، ويفوز بالفضل العظيم.

١ التوبة من الذنب

وإنى أنبهك أيها الأخ المسلم أن تلجأ إلى التوبة عند كل ذنب، واثقاً بالله سبحانه وتعالى فى وسعة رحمته، معتقداً أنك عبد وأنه رب غفور عفو تواب كريم، ولا يهولنك عظم الذنب فإن ذلك لجهلك بواسع مغفرة ربك، ولا حصوله منك بعد التوبة، فإن ذلك لجهلك بواسع عفوه، بل سارع إلى التوبة عازماً على عدم الرجوع إلى الذنب بإخلاص وصدق، ولو أذنبت فى اليوم مائة مرة. وإنما شنع العلماء على التائب العاجز عن عمل الذنب، فإذا قدر عاد للذنب، لأنه لم يتب لله مخلصاً. وعلى من تاب بعد الوقوع فى الذنب إذا أصابته بلية باقتراف الذنب فيتوب، منتظراً زوال البلية. كما ذموا من تاب عازماً على العودة، وهؤلاء لم يكونوا من التائبين عندنا، ولكنهم لاعبون وهم مذنبون بتوبتهم، ويجب أن يتوبوا من تلك التوبة لأنها ليست توبة حقاً، ولكنها ذنب آخر يضاف إلى ذنوبهم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ

ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يونس ٩٠-٩١، وقوله ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ النساء ١٨، وأمثال هؤلاء يجب عليهم قبل التوبة أن يسارعوا إلى مجالس العلماء الربانيين، ويستفتونهم فى التوبة حتى يعلموهم كيف يتوبون ولمن يتوبون، لأن أمثال هؤلاء من الغافلين الذين لا ترفع أعمالهم لجهلهم وغفلتهم فى العمل. والجاهل لا يقبل الله منه قليل العمل ولا كثيره.

٢ التوبة من التوبة

كان السلف الصالح يبكون بعد الأعمال الصالحة خشية أن تُرد عليهم، حتى قال بعضهم: التوبة من التوبة ألزم. وإن ظهر لبعض من لا معرفة لهم بأسرار التوحيد خطأ قائل هذه الكلمة، ولكنهم لو كوشفوا بمُراده لتابوا من توبتهم، فإن التائب إلى الله إذا شهد عمله فى توبته، واعتقد أنه أورد هذا العمل على الله بحوله وقوته فهو مشرك شركاً خفياً، فمثله يتوب لا من التوبة ولكن من ذنب آخر هو شهوده عمله فيه، لأن التوبة كما قررت آنفاً فضل من الله يتفضل الله به على من يحبهم من عباده، فهو وارد من الحق على الخلق، وهو لأهل مشاهد التوحيد، فالرجوع إلى الله بالتوبة فضل الله على العبد فى الحقيقة وإقبال منه عليه، فإذا شهد العمل لنفسه واطمأن قلبه به فقد جهل فضل ربه عليه بتوبته، ونسى نعمة المنعم عليه برجوعه، فيكون قد بعد عن الله بما يظن أنه قرب إليه به، فيتوب من هذا الذنب الخفى إلا على أهل مشاهد التوحيد. فقوله تاب من التوبة معناه تاب من ذنب ارتكبه فى التوبة. ولأهل الفرقة الناجية مشاهد فى قرباتهم، وأذواق راقية فى عباراتهم، أسأل الله تعالى أن يمنحنا فضله العظيم، وأن يجعلنا من التوابين المتطهرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التوبة عمل من أعمال القلوب والجوارح

واعلم أن من أخذ نفسه بالعزم على استبدال قبائح الأعمال بمحاسنها، والإخلاص فى الرجوع إلى الله، والصدق فى العمل له، وملاحظة التوحيد الخالص عند القيام به فهذا هو العمل القلبى، والعمل بالجوارح هو القيام بالفرائض، وملازمة سُنن رسول الله ﷺ، وترك ما

كان يعمل من قبيح العمل، والمسارعة إلى الواجب والمندوب، ليستبدل كل قبيح عمله بعمل حسن يعمله، وأعد لكل خصومة صلحاً، ولكل زلة آتاها للخلق إحساناً يحسن إليهم لوجه الله تعالى، تشبهاً برسول الله ﷺ. وليس بتائب من أهمل عمل القلب وسارع إلى عمل الجوارح، ولا من أهمل عمل الجوارح وسارع إلى عمل القلب، لأنه يتوب من عمل عمله بقلبه وجوارحه، وكل من القلب والجوارح مطالب بالتوبة حتى يتفضل الله عليه بمحبته حقاً، لأن النعيم فى الدار الآخرة للروح والجسم، والشقاء فى الدار الآخرة للنفس والجسم، ومتى زكت النفس أفلح الجسم والنَفْس، وسمى بمجموعها مؤمناً، فإن كلمة الإيمان مدلولها عمل القلب، وعمل الجسم، وليس بمؤمن من اعتقد وترك الأعمال الظاهرة، فإنه كافر عند الله. ولا من عمل بالجوارح وترك الأعمال القلبية، فإنه منافق عند العلماء. إنما المؤمن حقاً من جمله الله باليقين الحق، ووفقه للأركان والنوافل. إذن فالتوبة لابُد أن تكون بالقلب والجوارح.

صور التظاهر بالتوبة

إن كثيراً من أهل الجهالة يتكلفون الأعمال الصالحة أمام الخلق، وقلوبهم قلوب الشياطين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ومن أهل الجهالة من يتكلف الخفاء بالأعمال عن الناس، وهمته متوجهة إلى الشهرة والظهور، فتكون الأبدان متقلبة فى الطاعات، والقلوب مظلمة بالغفلات.

ومنهم من يتكلف الخروج عن الاعتدال، ظناً منه أن ذلك تزكية للنفوس وتهذيب لها، كما فعل بعض الأفراد الذين خرجوا إلى الغابات فراراً إلى الله تعالى، فيتشبهون بهم فى أعمالهم البدنية، ويجهلون مشاهدهم العلية، فتكون لهم بعد ذلك شهرة بين الناس ومنزلة، فيقبلون على الدنيا كالذئاب.

ومنهم من يحفظ كلام القوم ويلقيه على العامة ليجذب قلوبهم إليه، ويسلب أموالهم منهم، وهم فى عملهم هذا يروغون روغان الثعالب.

ومنهم من ينظر إلى أهل زمانه نظر ازدراء، فيمقتهم ويبحث عن عيوبهم، ويحفظ ما ورد

فى ذم الأعمال السيئة والبدع المضلة، جاهلاً بحقائقها غافلاً عن سر مدلولها وعمن قيلت فيهم، فيقوم مشنعاً على العامة فى أعمال ليست من البدع ولا من الضلالة، فيكون آلة للشيطان، يفرق جماعة المسلمين فيشغلهم عن الموارد الهنية والمشاهد العلية، ويظن أنه مجدد للسنة، وهو مغرور محجوب مبعود عن الله.

ومنهم من يشتغل بالتفضيل فيفضل زيداً على عمرو، حتى يشغل المسلمين عن سنى الأحوال ومقبول الأعمال كما فعل الرافضة، ومن غالى من الشيعة، وكما فعل بعض جهلاء المتكلمين، كل ذلك من الجهل بالله ومن الجهل بالنفس. والأولى بهؤلاء أن يفتشوا عن مرشد كامل يتلقون عنه الحكمة والمعرفة، ويتركون شأن العامة فإنهم على خير. كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (اللهم إيماناً كإيمان العجائز). وكما قال بعض العارفين: اللهم إيماناً كإيمان الأميين. وقد بينت فى كتاب "تذكرة المرشدين والمسترشدين" ما ينبغى أن يكون عليه العالم والمتعلم والمرشد والمسترشد، والله أسأل أن يحفظ جماعة المسلمين من الأمراض المنتشرة من هؤلاء، وهم الذين فرقوا الأمة إلى بضع وسبعين فرقة، أعاذنا الله من شرهم، وقد بينت فى باب تراجم أفراد الصحابة وأئمة السلف، نماذج للصراط المستقيم لطالب الله تعالى، يهتدى بها فى سيره وتستنير بها سريرته، لأنهم أئمة الهدى الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية لطريقهم فى كل يوم أربعين مرة، لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة ٦-٧، فهم الذين أنعم الله عليهم، أعاننا الله على انتهاج سبيلهم، ووفقنا للعمل الذى يحبه ويرضاه آمين.

التائبون

التائبون هم أهل الفرقة الناجية، الفرقة الناجية هم الذين عناهم جل وعلا فى قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة ١١٢، وهذه الآية الشريفة فصلت لنا إجمال ما كملهم الله تعالى به من المقامات والأحوال، فإن المؤمن الكامل الذى جمله الله بما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه، يكون من أهل الفرقة الناجية، إلا إذا جمع الله له تلك المعانى ويسرها له وسهلها عليه.

التائبون تخلقوا بالقرآن

يقرأ المؤمن القرآن متدبراً، فيتحقق منه فى القسم الإلهى بالعلم النافع، ذوقاً وحالاً، فإذا قرأ أخبار الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام نظر بعين فكرته، وشهد ببصر عبرته ما أدى إلى غضب الله فاجتنبه، وما أدى إلى رضوان الله فجاهد نفسه أن يتخلق به، ثم نظر إلى ما كان عليه رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم من الصبر على ما لا تتحمله القوى البشرية، فيصبر عند المقتضيات على قدر منزلته، تشبهاً بهم صلوات الله وسلامه عليهم، وما كانوا عليه من الرحمة بالخلق والحرص والغضب لله عند مقتضاه، والغلظة على أعداء الله عند لزومها، فيجاهد نفسه أن يتشبه بهم عليهم أفضل الصلاة والسلام فيما يعتوره من الشئون المناسبة لمكانته، ثم يجتهد أن ينبه إخوته المؤمنين على الأعمال التى أوعد القرآن فاعليها بسوء العاقبة بالحكمة والموعظة، وينشط العاملين من إخوته بما مدحه القرآن من الأعمال، ويمدحهم مدحاً يقوى به الإيمان فى قلوبهم، ويشجعهم على ذلك، ثم يتدبر آياته فى الأحكام الشرعية ويتحقق أن هذا الأمر من الله تعالى خاصاً به دون غيره، فيسارع إلى تنفيذ ما أمر الله به عند الاستطاعة غير ناظر إلى غيره، ولو أهمل وترك، فإن المرء المؤمن أشفق الناس على نفسه، وأرحم الناس بها، فيرى أنه أولى بنيل الخير الأبدى من كل الخلق، فمتى سمع من القرآن أمراً بالمعروف، أو تنبيهاً بفعل خير أو ترغيباً فى عمل صالح، سارع إليه كائناً ما كان، وترك غيره حتى إذا أعانه الله تعالى على فعل الخير واطمأن على نفسه بالقيام به حق القيام فالأولى له بعد ذلك أن يرشد إخوته المؤمنين، وإن أهمل القيام بما علم وقام فنظر إلى إهمال الخلق، ولم ينظر إلى عيوب نفسه وتقصيرها، كان ذلك سبباً فى هلاك نفسه، وكان كالشمعة تضئ لغيرها وتحترق.

وإنما يقرأ المؤمن القرآن ليتجمل بحلاه، وينهل من طهوره المختوم، ويتجمل بجماله، ويتناول من لذيذ معانيه قوتاً لقلبه وغذاء لروحه وطعاماً لنفسه، ومن علامة الغفلة أن يقرأ الإنسان القرآن ثم يسخط على الناس، ويقول هلك الناس وهو فى الحقيقة الهالك.

* * *

التائبون أسرع استجابة لأوامر القرآن ونواهيه

أنت أيها القارئ للقرآن عليك أن تسارع إلى نجاة نفسك، وما عليك من غيرك، فإذا تجملت بجمال القرآن، وأطاعتك نفسك كنت داعياً إلى الحق بعملك قبل قولك، وبقولك قبل مالك، وأشرقت منك أنوار القرآن على أهل القرآن، فكنت بينهم كالشمس المشرقة يهتدون بنورك، ويستضيئون بقولك وعملك.

إذا سمعت ربك سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فاستجب لربك وقل لبيك وسعديك، واصغ بأُذن قلبك إلى ما يقوله ربك، فإن أمرك فسارع إلى السمع والطاعة، وانظر بعين بصيرتك إلى نفسك، فأنت أرحم الناس بها، وقم فخلصها من خطاها وهواها، وغض بصرك عن غيرك فإنما أنت المنادى بنفسك من ربك، والمنادى هو الله لا أنت، فاستجب لله أولاً ثم قم منادياً بنداء ربك، لأنك عملت بما أمر.

التائبون أهل القرآن

فإذا تلوت الآية التى فيها الثناء من الله والبشائر منه سبحانه، فتدبرها ببصر ناقد وقلب واجد، وتمثل قدر الثناء من الله تعالى الذى تسارع إليه الأرواح الطاهرة، وجاهد نفسك كل المجاهدة أن تلتحق بمن أثنى الله عليهم، أو تتشبه بهم فتكون ممن أثنى الله عليهم، وتشبه بهم وأى مجد أعظم درجة من مجد من أثنى الله تعالى عليه، ثم تأمل فى الأعمال التى بشر الله عليها عباده، ونافس فى أن تكون ممن بشرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين ٢٦، ثم تنبه عند تلاوة الآيات التى يذكر الله فيها النعيم الذى أعده لعباده المؤمنين، الخير الذى جعله لهم عند ذكر الجنة ووصفها، وبيان ما فيها مما تشتاق إليه النفوس، وتبذل لأجله كل نفيس وغال، فإذا قرأت تلك الآى فتمثل بخيالك الملاذ الجسمانية النفسانية، والنعم العظمى التى لا نصب فيها ولا زوال لها، وتدبر ما تناله فيها من مشاهدة وجه ربك جل جلاله، ونيل رضوانه ومجاورة رسله الكرام، وأهل محبته من صفوة عباده، واستسهل كل ما يوصل إليها فى نظرك، وانظر إليه حقيراً بالنسبة لها، ولو كان فى ذلك بذل المهج، فضلاً عن الأولاد والأموال، فإن نَفَساً فى الجنة خير من الدهر كله فى أكمل نعيم الدنيا، وكيف لا ومهما

كمل نعيم الدنيا فذكر الموت ينغصه، وكل لذة تنقلب ألماً إذا تذكر الإنسان سوء عاقبتها، وكل ما رغبت نفسك فيه فهو مشوب بالأوصاف والبلايا التى ينالها الإنسان فى جمعه، وما يقتضيه جمعه من ضرر الغير، فشتان بين نعيم مقيم فى جوار رب العالمين، وفى أمانه ورضوانه الأكبر، وبين ما لا يناله إلا بالمضار والأوصاب ولا دوام له، وعاقبته العذاب. لعلك إذا تخيلت تلك المعانى فى تلاوتك ظهرت لك الجنة جلية فشهدت ما فيها حتى كأنك على أبوابها.

جنة عرضها السماوات والأرض أعدت والوجه مرأى الرجال

التائبون يمشون على الصراط

وبذلك تقبح فى عينك ملاذك، وتستر ذل حظوظك، ومتى استقبحت آمالك فى الدنيا، واستنكفت أن تبيع النعيم الأبدى ورضوان الرب العلىِّ بلذة عاجلة، وأمل كله وصب يزول عن طالبه أو يزول هو عنه، وليس المؤمن بكامل الإيمان إن لم يتحقق أنه يمشى على الصراط الذى هو أحد من السيف وأدق من الشعرة، وأن الجنة فى نهايته فيسارع إليها، وإلى الحطمة تحت قدميه فيخشى أن ينكب فيها، وأن أعماله فى الميزان فيحب أن يثقلها بالعمل الصالح، ذلك لأن القرآن الشريف كرر تلك المعانى على المؤمن لتقوى الذكرى بها، فتكون ذكراً فلا تنسى، ثم يتصورها الخيال فتنطبع فيه بأكمل جمالاتها، فلا تغيب عن النفس طرفة عين. وقد سأل ﷺ سيدنا عمران بن حصين فقال له: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت يا رسول الله كأنى أرى عرش ربى وكرسيه، فقال له ﷺ: عرفت فالزم. فالمؤمن إذا قرأ آيات البشائر بالنعيم والرضوان، بحث عن أهلها الذين يتفضل الله عليهم بهذا الفضل العظيم، وفتش عن صفاتهم التى أثنى الله بها عليهم فيسارع إليها، ومسارعته إليها هى مسارعة إلى المغفرة والجنة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ آل عمران ١٣٣ - ١٣٦، والمسارعة إلى تلك الصفات التى ذكرها الله إنما هى مسارعة من يعلم قدر النعمة التى ينالها، والفضل العظيم الذى يفوز به، والخير العظيم الذى يحظى به من الله تعالى، ويكون فى عمله هذا كأنه فى أعلى مراتب الجنة تصديقاً لوعد ربه، وتلذذاً بتوفيق الله له للعمل بما يحبه، فيكون كأنه فى جنتين، جنة روحانية وهى بهجة نفسه بالتوفيق والعناية والهداية، وجنة جسمانية وهى تلذذه بطاعة ربه فى تلك الدار الدنيا، ويكون له جنتان يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الرحمن ٤٦.

هذا ما ينكشف لك يا أخى عند تلاوة آى البشائر والوعيد، فإذا أنت قرأت آيات الوعيد والعقاب اقشعر جلدك وظهرت لك جهنم بما فيها، كما أخبر الله تعالى ظهوراً يشيب لهوله الطفل. ونار الحجاب عن الله بسبب الأخلاق والعقائد الباطلة التى تكب المرء على أم رأسه فى نار الغضب، وهى أشد من نار جهنم لأنها المؤدية إليها، وتخيلت أن من فعل تلك الأعمال عذب بنارين، نار نفسانية ونار جسمانية، أما النار النفسانية فما يعلوه من الحزن والأسف. وأما النار الجسمانية فما ابتلى به من معصية الله، ويرى الجحيم أمامه مكاشفة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ التكاثر ٥-٦.

التائبون يفرون مما يؤدى إلى غضب الله وسخطه

فتصور يا أخى أعاذنى الله وإياك من الأعمال التى توجب غضب الله وسخطه وأليم العذاب يوم القيامة، الذى توعد به الله المخالفين لوصاياه، وارسمها على خيالك عند قراءة الآيات المقتضية لذلك، ثم ابحث عن الأعمال والصفات والعقائد والأحوال التى تؤدى إلى هذا العذاب الأليم، فاجعل بينها وبينك ما بين المشرق والمغرب، واجعل لك حصناً منيعاً من سُنة مولانا رسول الله ﷺ، ووقاية من العمل بهدى السلف الصالح، وخشية من ربك جل جلاله يحفظك الله بها من الوقوع فى مخالفته جل جلاله، وكن يا أخى كالرجل الجائع الذى إذا ذكر له الطعام تنبهت شهوة الجوع فى معدته لتخيله طعمه وريحه، فإذا ذكرت آيات البشائر

والنعيم تنبهت الرغبة فى قلبك، وتباعدت عما يوجب الحرمان منها.

ولقد كرر الله تعالى قصص الأنبياء وأخبار الجبابرة وأحاديث المؤمنين فى كتابه لتتجمل عند التلاوة بكل تلك الأخلاق السنية، وتتباعد عن صفات الجبابرة الطغاة وتتشبه بمن أثنى الله عليهم ووعدهم الخير المقيم.

كن أنت يا أخى فى التلاوة المأمور والمنادى حتى تسمع كلام ربك من ربك جل جلاله، وتتلقاه من حضرة رسول الله ﷺ، فإذا قال ربك: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأنعام ٧٢، قلت لبيك وسعديك سمعاً وطاعة لك يا ربى، وإذا قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ٩٠، انكشفت لك حقيقة نجاستها، وصارت أمامك أنتن من الجيفة وأشد ألماً من النار، وقلت: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، أعنى اللهم على ترك ما تكره والعمل بما تحب، فتكون كأنك تخاطب ربك ويخاطبك ويتكلم معك وتتكلم معه، ولا تقرأه كما ترجعه الآلة الحديدية، وكما ترجعه الأمكنة الخالية كصدى الصوت، فيحرم القارئ مشاهدة أنوار كتاب الله تعالى، ويكون كأنه لم يقرأه أبداً.

قال رضي الله عنه:

أتوب وفى قلبى ميول عن الذنب ... وفيما مضى قد تبت يا قوم من ذنبى
عجيب أرانى إذ أميل عن الهوى ... أفارقه بعد الشبيبة فى الشيب
وما الذنب إلا ظلمة فوق ظلمة ... أشد ذنوبى غفلتى عن ضيا الرب
أأجهل بعد العلم والشيب أننى ... وحق مقام الحب يا قوم فى غيب
أرى الوجه ما وليت وجهى ظاهراً ... يواجهنى بالفضل فى وجهتى صوبى
أرى خلتى القوام فى طول ليلهم ... أنا النائم الغفلان فى السهو والحجب
ولولا وثوقى أن ربى غافر ... لذبت من الخوف الشديد من الرعب
وذنبى عظيم خالقى لم تضره ... ذنوبى وأوزارى وشكى أو ريبى
ولم ينتفع منى بذكر وشكره ... أنا عبده الفانى لقد خفت من ذنبى
ولكننى أرجوه جل جلاله ... تجلى تواب ليمنحنى قربى

بفضلك يا وهاب فاغفر كبائرى ... وبالفضل فارفعنى إليك بلا كسب
كبرت وشيبنى عم جسمى جميعه ... فهب لى منك الحب فى صولة الجذب
تفضلت أوليت العوالم نعمة ... من البحر والأفلاك والنبت والترب
عطاياك لا تحصى وجودك وافر ... على فتب حتى أتوب من التوب
فإن ذنوبى والكبائر كلها ... وحقك لم تيئس ذليلاً من الرب

التائبون وتلاوتهم للقرآن

يستحب للتائب أن يختم القرآن فى كل أسبوع ختمتين، ختمة بالنهار وأخرى بالليل، ويجعل ختمة النهار بعد يوم الإثنين فى ركعتى الفجر أو بعدها، وختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل. فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح، وتصلى عليه إن كانت نهاراً حتى يمسى، فهذان الوقتان يستوعبان كلية الليلة والنهار، وفى الخبر: لم يفقه من قرأ القرآن أقل من ثلاث، وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن فى كل سبع، وكذلك كان جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة، عن يحيى بن الحارث الدينارى عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الإثنين بطه إلى طسم (القصص)، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ﴿صٓ﴾، وليلة الأربعاء ﴿تَنزِيلُ﴾ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ويختم ليلة الخميس. وكذلك كان زيد بن ثابت، وأبى يختمان القرآن فى كل سبع، وعن ابن مسعود أنه قرأ القرآن فى سبع ليال فكان يقرأ فى كل ليلة سبعة، إلا أن ترتيب مصحفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره، وجماعة يذكر عنهم ختم القرآن فى كل يوم وليلة.

التائب يعقل أمر القرآن ونهيه

واعلم أنه لا يجد فهم القرآن من فيه أدنى بدعة أو مصر على ذنب أو عبد فى قلبه كِبْر، أو مقارف لهوى استكن فى قلبه أو محب للدنيا، أو عبد غير متحقق بالإيمان أو ضعيف اليقين، ولا

من هو واقف عند مبناه غافل عن معناه، ولا عبد يتتبع حروفه وأخباره، ولا ناظر إلى قول مفسر ساكن إلى عمله الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاض بمذاهب أهل العربية واللغة فى باطن الخطاب، أو فى سر﴿ الٓمٓ ﴾ وغيرهما من رموز القرآن الشريف، فهؤلاء كلهم محجوبون بعقولهم مردودون إلى ما يقدر فى علومهم، موقوفون مع ما تقرر عن عقولهم. مزيدهم على مقدار علومهم وغرائز عقولهم، وهؤلاء مشركون بعقولهم وبعلومهم عند الموحدين، وهذا داخل فى الشرك الخفى، لأن العقل الكامل ما عقل عن الله عز وجل وفهم حكمته وكلامه، وقد قال رسول الله ﷺ فى صفة كمال العقل: (العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالى أمره ونهيه). وفى الخبر: أكثر منافقى أمتى قراؤها. فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى والنظر إلى غيره، لا نفاق الشرك والإنكار لقدرة الله عز وجل، وهذا لا ينتقص من التوحيد ولكنه ينتقص من مقام طالب المزيد.

فإذا كان العبد مُلقياً السمع بين مولاه مُصغياً إلى سر كلامه، شهيد القلب لمعانى صفات شهيده، ناظراً إلى قدرته تاركاً لمعقوله ومعهود علمه، متبرئاً من حوله وقوته مُعظماً للمتكلم واقفاً على حضوره، مُفتقراً إلى الفهم بحال مستقيم وقلب سليم وصفاء يقين وقوة علم وتمكين، سمع فقه الخطاب وشهد علم غيب الجواب.

وأفضل القراءة الترتيل لأنه يجمع بين الأمر والندب، وفيه التدبر والتذكر. عن سيدنا علىٍّ كرم الله وجهه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها ولا فى قراءة لا تدبر فيها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة، وروى عنه أيضاً: لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما، أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهداراً. وسُئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة فكان قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة، والآخر قرأ القرآن كله. فقال: هما فى الأجر سواء، لأن قيامهما كان واحداً. وأفضل الترتيل والتدبر فى القرآن ما كان فى صلاة. وقال بعضهم إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر.

❊ ❊ ❊

قصائد فى التوبة

للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم

قال ﷺ:

عَظُمَ الذنبُ مُنَّ لى بالمتابِ ... قد تضرعتُ سائلَ التوابِ
لى ذنوبٌ قد أثقلتنى اغفرن لى ... من ولىٍّ معطٍ ومن وهابِ
كلما تبتُ عاودتنى ذنوبى ... تُبْ إلهى علىَّ حَسِّنْ إيابى
آه منى أتوبُ ثم أعود ... ثم أرجو غَفْرَ الذنوبِ الصعابِ
أطمعَتْنى الذنوبُ فى فضل ربى ... كيف يأسى من بعد فِقْهِ الخطابِ
﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ فرّحتنى ... فى ﴿ يُبَدِّلُ ﴾ راحُ بلا أكوابِ
بدِّلَن سيدى المَساوِى بعفوٍ ... واجمعنى فضلاً على الأصحابِ
افرحى رُوحى بالمجيب وليى ... فى صريحِ القرآنِ نصَّ الكتابِ
إننى مؤمنٌ وفى الذكر آىٌ ... بشَّرتنى تُتْلى وفيهِ شرابى
فى معانى ﴿ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ... فاقبلنْ توبتى ويسِّر حسابى
فى معانى ﴿ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ... يا إلهى الحسنَى وخيرَ المتابِ

وقال ﷺ:

جهلتُ ومثلى مخطئٌ ومَعيبُ ... وربى غفورٌ كَمْ علىَّ يتوبُ
نعم أنت توابٌ حليمٌ وغافرٌ ... وشأنى فى كُلِ الذنوبِ عجيبُ
حليمٌ صبورٌ أنت تغفرُ كلما ... جنيتُ فتهدينى إليك أُنيبُ
نعم لم يضرَّ اللهَ كلُّ كبائرى ... ولمْ يَنْفَعَنْهُ مخلصٌ محبوبُ
تنزهَ جلَّ اللهُ يمنحُ مَنْ يشا ... قبولاً وعفواً وهو جلَّ مُجيبُ
تعاليتَ عن ضِدٍّ ومثلٍ لك الثنا ... لك المجدُ يا ذا العرشِ أنت رقيبُ

أمـولاى طهِّـرنـى وأشهِـدْ لطـائفـى ... لـيـظهـــر لى المحبـوبُ والمـرغــوبُ

ألح لى جمــالَ الــوجهِ فى كلِّ وجهتــى ... لأشهــدَ نــورَ الــوجهِ وهـــو مَهيبُ

أمـــولاى أولادى أَنِلْـنَــا هـــدايـــةً ... وخــيراً به القلبُ الكــسيرُ يَـطـيـبُ

أيــا ربِّ إِخــوانــى أنِلْنـا عنـايـة ... ففـضلُك ربِّـــى بُغيـتـــى ونـصيـبُ

وقال رضي الله عنه:

إلهـــى إلهـــى إن عـبـــدَكَ ضـــارعٌ ... يـريـدُ الـرضـا والفـضلَ والقلبُ جـازعُ

ظلـــومٌ جهـــولٌ كَم أســأْتُ وإِنـنــى ... أتـيــتُ إلى مــــولاى ذُلاً وخـــاشعُ

إلهــى إلهـــى كـم عـصيتُ وإِنـنــى ... أتـيــتُ إلى ربـــى بـــذلً أســـارعُ

ولى أمـــلٌ فى اللهِ جـــلّ جـــلالُـــه ... ومـــولاى خـيرُ الــرسلِ للهِ شـــافعُ

تقـــربتُ بـــالمختـــارِ لله أرتجـــى ... رضــاهُ وقلبــى من ذنــوبــى خــانعُ

إلهــى أنــا المـضـطـرٌّ أرجـوك نـظـرةً ... بـأهلِ الصفـا من هُمْ شمـوسٌ طـوالعُ

يـنـــاديـك قلبـــى والجـــوارحُ كلُهـــا ... داءً به يحلـــو الـــصفـــا والـتـــواضعُ

تجلّ لمـضـطـــرٍّ بـــشـــافٍ ومـنعـمٍ ... وبَـــرٍّ وتـــوابٍ فـنـــورُك ســـاطعُ

إلهي إلهـــى أسفـــرَ الفجـــرُ طـــالعـــاً ... وعبـــدُك جـــارُ البيت داعٍ وخـــاضعُ

خطـايـــاى يـــا مـولاى تُـثْقِلُ كـــاهلى ... فـيُـطـمِعنــــى فــضلُ مـن اللهِ واسعُ

ومـــا هـــى زلّاتـــى وكلّ كـبـــائـــرى ... إذا نُـــسِـبَـتْ للعفـــوِ واللهُ نـــافعُ

أغثْنــى وتبْ وارحمْ فــإنــى مـوقنٌ ... بـــواسعِ إحـــســـانٍ لقـــدرى رافعُ

ووداً لأولادى وكــلِّ أحـــبـــتـــــــى ... به الخْـيرَ تمـنَحُـنـــا ونـــورُك لامعُ

فـــأنــت غفـــورٌ مـنعمٌ مـتفـضلٌ ... وعــبــدُك مـضـطـــرٌّ فقيرٌ وطـــامعُ

وحـاشـاك رَبّ البيتِ أدعـو بفـاقتـى ... وأرجعُ إلا والـــرضـــا يـتـتـــابعُ

دعــوتُك مضطـرّاً إلى الفضل والـرضـا ... أنلنــى الـرضَـا والفـضلَ كلى مسـامعُ

وقال رضي الله عنه:

مَـنْ إلـيه تـضرعـي وابـتهـالي مَـنْ إلـيه تـوجُّهـي إقبـالي
من يجيب المضطرَّ حال اضطرارٍ من يلبـي الـداعـي بخير جمالِ
ربِّ إنـي وافيتُ أسألُ تـوبـاً فـاعْفُ عنـي فى كلِّ حِلِّى وارتحالِ
ربِّ إنـي المـضطـرُّ أنتَ مجيبٌ اعـطنـي الخيرَ واستجبْ لى سؤالي
وسِّعْ لى العطا وهب لى إلهي وَاسِعَ الخيرِ منـك جَمِّلْ مـآلى
واشفني سيدى فـإني سقيمٌ بـالحبيبِ المختـارِ والأبـدالِ

وقال رضي الله عنه:

إن كـان ذنبـي عـظيماً فعفـوُ ربِّي أعظمْ
أو كـان إثمي كبيراً فـاللهُ رَبِّي أرحمْ
كـم أسبل السَّترَ منه علـيَّ كـمْ لِيَ أكرمْ
وكم رآني مسيئاً فتـابَ عنـي وأنعمْ
أراهُ يعطي العطـايا فـضلاً ولمْ أَكُ أعلمْ
يبـدلُ السوءَ فـضلاً منه بحُسني فَأَسْلَمْ
أسْبِغْ جميلَ العطـايا لِمَنْ بعفـوِك مُغْرمْ
واجعلْ عطايـاك ربِّي لعبـدِ نُعمي ومَغْنَمْ
وانظمْهُ فى عِقْدِ قومٍ عن كلِّ غيرٍ صُوَّمْ

وقال رضي الله عنه:

خطايايَ لمْ تَحْجُبْ لساني ولا قلبي لأنَّ ذنوبـي أيقظتني من الْحَجْبِ
بها القلبُ منكسرٌ خشوعاً وذلةً بها صحَّ إقبالى بها صحَّ لى جذبي
أنا العبدُ خطاءٌ مُسِيءٌ ومذنبٌ وأنتَ عَفُوٌّ غافرُ الذنبِ يا ربِّي

وفى شهرِ رمضان عطاياك سيدى ... بها الفضلُ والإحسانُ فى مشهدِ القربِ
إلى حضرةِ التوابِ بالذنبِ سيدى ... أتيتُ كسيرَ القلبِ من فادِح الكربِ
ولى شيمةُ ظلمى لنفسى وغفلتى ... وشيمتُك الإحسانُ يا عالِمَ الغيبِ
ومن سافلينَ النأىَ كلِّ حقائقى ... بفضلِكَ جَمِّلْهاَ بِقُرْبِكَ والحبِّ
وتلك ليالى الفضلِ والعفوِ والرضا ... وعبدُكَ سأَلَ بِحِبِّكَ والصحبِ
ولى حسنُ ظنٍّ فى المغيثِ لَمن دعاَ ... بهِ عقدُ توحيدِى يقيناً بلا شوبِ
تبتلتُ فى ليلِ الإجابةِ ضارعاً ... من النارِ فاعتقنيِ بعفوِك والتوبِ
ومُنَّ علىَ العبدِ الظلومِ بتوبةٍ ... يدوم بها الإقبالُ بالفضلِ من ربِّى
بأسمائك الحسنى بذاتِك فى العما ... غيوبِك فى طَلْسمِ كَنْزِكَ فى صوبىِ
إلهى إلهى مذنبٌ ومقصرٌ ... ظلومٌ جهولٌ فى ضلالٍ وفى صعبِ
يناديك مضطراً أغثنى برحمةٍ ... تُبَدِّلُ ظلمىِ بالتقرُّبِ والشربِ
إلهى إلهى أنت بَرٌّ ومنعمٌ ... عفوٌّ غفورٌ راحم قابلُ التوبِ
أعنِّى أتبْ أَقْبِلْ علىّ بوسعةٍ ... وبى أَقْبِلَنْ حتى أُجَمَّلَ بالقربِ
أنا الطامعُ الراجى ومولاى قادرٌ ... أنلنى الرضا والفضلَ فالآىُ قد تنبىِ
ذنوبىِ لَمْ تُيْئسْ عُبَيْدَكَ سيَّدى ... لأنك توابٌ وقد طَمْأَنَتْ قلبىِ
وقد كبرتْ سِنِّى وشبَّتْ كبائرى ... وشابتْ نعمْ رأسِى ونفسىِ فى حربِ
حَنَانَيْكَ يا توابُ عطفاً ورحمةُ ... ووُدّاً به أحيا بطيبةٍ فى حمى (حِبِّ)
بوجهِك واجهنىِ إلهى تنزَّلَن ... وصلِّ على خيرِ النبيينَ والصَّحبِ

الدرس الثانى

العبادة والعابدون

تعريف العبادة

العبادة اعتقاد عند أهل التسليم، وشهود عند أهل الكشف أن للمعبود سبحانه قوة غيبية فوق الأسباب يقدر بها على النفع والضر، مع غاية الحب ونهاية الذل والخضوع ـ ففى اللغة التعبد الخضوع والتذلل ـ فمن أحببته ولم تكن ذليلاً خاضعاً له لم تكن عابداً له، ومن خضعت له ولم تكن محباً له لم تكن عابداً له حتى تكون محباً ذليلاً خاضعاً.

والمنكرون محبة العباد لربهم منكرون حقيقة العبادة، فإن العابد الحق فى نهاية الحب وغاية الذل والخضوع لمن يعبد، وفى كمال الاعتقاد أن له قوة غيبية فوق الأسباب الظاهرة، يقدر بها على النفع والضر. ومن أنكر أن الله محبوب للعباد بل إنه غاية بغيتهم، ووجهه العلىّ نهاية مقصدهم، فقد أنكر إنه إله يُعبد إذ العبادة كما قررنا نهاية الحب وغاية الذل، ومن لا حب له لا عبادة له، والخاضع الذليل بلا حب ليس بعابد، والعاشق بلا خضوع واعتقاد ليس بعابد. إذا فالعابد بلغ نهاية المحبة لله وغاية الخضوع والذلة لجنابه، واعتقد بقوته الغيبية وسلطته القهرمانية التى هى فوق الأسباب، فيكون بتلك المعانى كلها عابداً، وبترك معنى منها ليس بعابد.

إن العباد حقاً هم المتحققون بكمال الحب لله، والحب الذى حقر فى أعينهم الكونين، وأنساهم ما سوى الله فذكروه كثيراً، وتلذذوا بكمال الذل لعظمته وكمال الخشوع لعزته، لذلك فإنه سبحانه وتعالى قدم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة ٥، على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، لأن العبادة غاية المقصد، والاستعانة وسائل لها، والمقاصد تقدم على الوسائل للتعظيم، ثم ذكر اسمه قبل ﴿نَعْبُدُ﴾ الفاتحة ٥، بقوله ﴿إِيَّاكَ﴾ الفاتحة ٥، إشارة إلى أن العابد لا يكون عابداً إذا لم يكن مَحَقَ الحب من قلبه كل غير، وسلب الذل لله كل من سواه.

العبادة الخالصة

لا تعبُد لتنال أجراً فتكون عبد الأجر. ولا لتنال قُرباً فتكون عبد القرب ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الزمر ١١-١٢، ونزه سرك من الرغبة فى غير ربك، وهاجر من أفق روحك حتى لا تحيزك الآفاق ولا تحيط بك الأرجاء، ولا تحجبك الأجواء ولو أشرفت على القدس الأعلى، فإن القدس حجاب القدوس، والنور برزخ بين المتمكن وبين ربه، فاحفظ البرزخ عبودية وتجاوزه تألهاً إلى ربك، ولا تعظم ما تقربه إلى الله ولو قربت نفسك التى بين جنبيك، فإنك لو علمت لمن تتقرب وبما تتقرب لعلمت مقدار النعمة عليك بما تقربه، ولرأيت مقعد صدق دون مرادك إذا حفظت مرتبتك. وكيف يأنس من فارق المكان فى الدنيا بمكان فى الآخرة إذا حجبه عن مكون الأكوان ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الأنعام ١٦٢.

العبادة رعاية الأدب مع الله تعالى

ليس من عَلَم الشريعة فعمل بها مراعياً حفظ الأحكام وصحة الرواية وكمال التشبه فى التقليد فقط؛ بعامل من عُمال الله، بل العامل لله سبحانه وتعالى قبل أن يعمل العمل يجب أن يلاحظ أنه يعمل ليرضى ربه، وليؤدى حقه سبحانه وليطيع أمره، وليست طاعة الأمر وحدها موجبة للرضى ولا لتأدية الحقوق، فعامل بعلمه غير محافظ على رعاية الأدب مع الله تعالى ليحقق نفسه بمشاهد التوحيد التى يقوم بها لحق ربه حتى يتقيه حق تقاته، وتمكنه فى رعاية توحيد الله تعالى. ولا يكون ذلك إلا إذا تحقق بوحدة الأفعال مع إثبات وجوده العبدى، ليشهد الحضرتين فيشهد عبداً عابداً ويشهد رباً منفرداً بالإيجاد والإمداد، وذلك هو قيامه بالحق الذى هو لله تعالى.

ومن حجب عن شهود هذا المشهد وحصل أمثال الجبال من العلم، وملأ بطاح الأرض وصفاح السماء عملاً لا يقبله الله تعالى، لأن الله تعالى لا يقبل عملاً به الشرك الخفى، فكيف يقبل عمل من اعتقد أنه هو الفاعل وأنه يعمل لربه بنفسه.

العبادة أساس خلق الكون كله

العبادة هى المقصد الأسمى للخلق أجمعين، التى لأجلها خلق العرش والكرسى والإنس والجن والملائكة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ الذريات ٥٦-٥٧، فالمتهاون بالعبادة متهاون بالمقصود الأعظم، والمتساهل فيها متساهل بالحكمة التى لأجلها خُلق. وكل عابد لله متحقق بمعونة الله، وليس كل مستعين بالله متحققاً بعبادة الله، لأن العبد قد يستعين بالله فيما ليس بعبادة. وإذا تقرر ذلك فالعبادة كلمة جامعة لأنواع الخير كله. إذ العابد محب لله خاضع لله عامل بأحكام الله، محافظ على سُنة رسول الله ﷺ، قائم بتأدية جميع شعب الإيمان من بر وصلة وعفو وإحسان وإكرام وتواضع وتوبة وإنابة ويقين وتوكل وتفويض وغير ذلك من المعانى التى يحبها الله.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى عند ثنائه ومدحه لطائفة من عباده يصفهم بالعباد، وهم الملائكة، قال عنهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الأنبياء ٢٦، وعند ثنائه على عباده من الإنس بما جملهم من الصفات قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ الفرقان ٦٣، وقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ الانبياء ٧٣، وقال: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الزمر ٥٣، ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ الزمر ١٦.

العبادة أكمل أعمال القلوب والجوارح

العبادة فى الحقيقة هى أكمل أعمال القلوب والجوارح معاً؛ لأن المحبة والذل والاعتقاد والمشاهدة فيها من أعمال القلوب، والحركات البدنية من صلاة وزكاة وصيام وحج ونطق بالتوحيد ومسارعة إلى الخير من أعمال الجوارح، فالعبادة مع كونها المقصد الأعلى فى الحقيقة، ونفس الأمر هى حقيقة الشكر على سوابغ نعمائه وعميم آلائه، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ سبأ ١٣، فجعل سبحانه وتعالى الشكر عملاً وجعل الشاكرين قليلين، فالعابدون على التحقيق قليلون.

العبادة روح الأعمال

ليست العبادة مجرد أعمال تؤدى بحركات وسكنات، أو تكاليف يقوم بها العابد فى آنات مخصوصة ولحظات معدودة، فإن تلك الأعمال ليست هى المقصودة بالذات، بل المقصودة روحها وسرها وحكمتها، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ الحج ٧٣، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥، وقال عز من قائل: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة ١٨٤، وقال جلت قدرته: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ التوبة ١٠٣، فالمصلى المشاهد روح الصلاة لا يقع فى فحشاء ولا منكر، والصائم التارك ملاذه وشهواته المتألم بالجوع والعطش، هو فى خير ولذة بما يتألم به غيره، وباذل الأموال مع كونها خرجت من ملكه ونقصت من ماله، تزكت نفسه بها وتطهرت.

العبادة مقام المحبوبين

فلمشاهدى روح العبادة مشرب طهور لا يمازجه شئ لكمال توحيدهم الخالص من الشوب. فإن أكثر العُمال يشوب إخلاصهم فى أعمالهم كدر بعض البواعث على العمل، كالرغبة فى الجنة ونيل الملاذ الباقية، ولكن العباد المخلصين صفت سريرتهم من شوب الشرك الخفى والأخفى، فسقاهم ربهم شراباً طهوراً صافياً، مما يكون مزاجاً لشراب غيرهم يطيب بقطرة منه شراب غيرهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ الإنسان ٥-٦، فبين سبحانه وتعالى أن شراب الأبرار يناول لهم فى كأس، وهذا الشراب ممزوج بطهور العين، الذى هو خالص شراب عباد الله المخلصين فى توحيده، فهذه العين التى يفجرها عباد الله تفجيراً، إنما تجلى لسرهم من حقيقة التوحيد بالتوحيد، حتى تراءت لهم أنوار معنى الصفات والأسماء بسر اتحاد التوحيد عن تنزل المزيد، فهم مع خالص توحيدهم تتراءى لهم معانى الأسماء والصفات، بمعانى واحد وأنوار أحد، وهذا الذى جعل العباد فى مقامات المحبوبين لله تعالى، لمحبتهم له سبحانه وتعالى.

أركان العبادة

للعبادة ركنان: علم وعمل، وحقهما أن يتلازما، لأن العلم كالأس والعمل كالبناء، وكما لا يغنى أس ما لم يكن بناء، ولا يثبت بناء ما لم يكن أس؛ كذلك لا يغنى علم بغير عمل ولا عمل بغير علم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر ١٠، والعلم أشرفهما لكنه لا يغنى بغير عمل، ولشرفه قال رجل للنبى ﷺ أيا الأعمال أفضل يا رسول الله: (فقال: العلم. فأعاد عليه السؤال فقال العلم. فقال الرجل فى الثالثة: أسألك عن العمل لا عن العلم. فقال عليه الصلاة والسلام: عمل قليل مع العلم خير من عمل كثير مع الجهل). وقال عليه الصلاة والسلام: (طلب العلم فريضة على كل مسلم).

فالعلم ضربان، نظرى وعملى. فالنظرى ما إذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل، كمعرفة وحدانية الله تعالى، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة السماوات والأرض وما أشبه ذلك. والعملى ما إذا علم لم يغن حتى يعمل به، كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبر الوالدين.

أنواع الأعمال فى العبادة

والأعمال ثلاثة أضرب: عمل يختص بالقلب وعمل يختص بالبدن، وعمل يشترك فيه البدن والقلب. والعلم إذا نظر إليه من حيث تحصيله فاكتسابه عمل، وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصور فى القلب خرج من تلك الحال عن أن يكون عملاً.

أحوال الإنسان فى العلم

وللإنسان فى استفادة العلم وإفادته ثلاثة أحوال، استفادة فقط، وحال استفادة ممن فوقه وإفادة لمن دونه، وحال إفادة فقط.

ويجب على الإنسان أن يستفيد فى جميع أدوار حياته، ففوق كل ذى علم عليم، فقد نبه تعالى على الحاجة إلى الاستفادة بما حكاه من قول سيدنا موسى عليه السلام لصاحبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ

أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ الكهف ٦٦، وانظر إلى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ النمل ٢٢، فالإنسان يفتقر إلى التعلم من الصغير فى بعض العلوم، والواجب على الإنسان أن يكون مستفيداً أو مفيداً، قال ﷺ: (الناس عالم ومتعلم وما سواهما همج).

مراتب العلم

العلم يهتف بالعمل ... فاعمل تنل كل الأمل
بالعلم يخشى الله من ... كل عليم قد وصل
العلم كشف الحجب ... عن سر الحقائق فى الأزل
علم يقين بعده ... عين اليقين بلا وجل
من بعده حق جلى ... حق اليقين لمن عقل
من بعد ذا فوق المقام ... كبرى الولاية فاتصل
وصل هو الفصل الذى ... يجلى الضياء لمن نهل
من بعد ذلك حظوة ... الفرد تجلى للبطل
مجلى كمال باطن ... عن كل جهد أو أمل
نور خفى غيب جلى ... للفرد فى التفريد حل

أقسام العبادة

تنقسم العبادة إلى قسمين: واجب ومندوب.

١ فالواجب يقال له العدل، والمندوب يقال له الإحسان، وهما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ النحل ٩٠، فالفرض أو العدل تحرى الإنسان ما إذا عمله أُثيب وإذا تركه عُوقب.

٢ والندب أو الإحسان، تحرى الإنسان إذا عمله أُثيب وإذا تركه لم يُعاقب.

والإنصاف من العدل، والتفضل من البر والإحسان، فالإنصاف هو مقابلة الخير بالخير

والشر بالشر بما يوازيه. والتفضل والبر مقابلة الخير بأكثر منه والشر بأقل منه. فالإحسان والتفضل احتياط فى العدالة. والإنصاف ليأمن به من وقوع خلل فيه. وذلك أنك إذا زدت فى إعطاء ما عليك ونقصت فى أخذ ما لك، فقد احتطت وأخذت بالعزم، كدفع زيادة زكاة إلى الفقير وترك ما أحل لك من مال اليتيم.

فالعدالة إن كانت جميلة فالتفضل أحسن منها، وكذلك قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ الشورى ٤١، وقال سبحانه عن الإحسان: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ البقرة ٢٣٧، وقال: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ البقرة ٢٣٧، إشارة إلى أن الإحسان والتفضل أحسن ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ يونس ٢٦، فالإنسان إنما يكون محسناً متفضلاً بعد أن يكون عادلاً منصفاً. فأما من ترك ما يلزمه، ثم تحرى ما لا يلزمه فإنه لا يقال له متفضل، ولا يجوز تعاطى التفضل إلا لمن كان مستوفياً وموفياً لنفسه. أما الحاكم المستوفى والموفى لغيره فليس له إلا تحرى العدالة والنصفة.

حكمة العبادة

للعبادة حكم كثيرة لا تحصى، منها تطهير النفس وجلب صحتها. لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى لاستعباد عبيده، واستخدام خدمه، فإن الله غنى عن العالمين، ولا ليؤدبهم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ البقرة ١٨٤، بل كلفهم سبحانه وتعالى ليزيل أنجاسهم، وأمراضهم النفسية لينالوا بفضله ورحمته حياة أبدية، وسلامة باقية. لقد وهب الله الإنسان القوى اللازمة لتحصيل الفضائل فى ابتداء حياته، فمن لم يحصل لنفسه تلك الفضائل فى وقت التحصيل ضعفت القوى عن التحصيل، وفاته الخير فلا يمكنه بعد الفوات قبول ذلك، مثل الفحم إذا صار رماداً فلا يقبل بعد ذلك ناراً، فمن استمر فى كفره وفسقه وتمادى فيه، صار إما ميتاً أو مريضاً أو أصم لا يقبل الشفاء، ولذلك قال الله تعالى فى مثل هؤلاء: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ النمل ٨٠-٨١، وقال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ البقرة ١٧١، وقال عز وجل: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ محمد ٢٠، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا

ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ التوبة ٢٨، وقال تعالى فى المؤمنين: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ يس ٧٠، وقال فيهم: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ص ٤٥.

فمن استفاد بالحياة والصحة والطهارة قبل أن تخبو عنه هذه القوى، صار حياً سميعاً بصيراً طاهراً، وتزود بخير الزاد كما أمره تعالى بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ البقرة ١٩٧، واهتدى بالدليل الموصوف فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ الشورى ٥٢-٥٣، وائتمر بقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ آل عمران ١٣٣، واقتدى بالموصوفين بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ المؤمنون ٦١، فجدير أن يفلح فينال السعادة، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ النور ٣١.

ومن حكم العبادات شكر المنعم سبحانه على ما أنعم، فإن النفس إذا تطهرت من نجاساتها وزالت عنها أمراضها. أُهلت لأن تكون مرآة مصقولة لنقش حقيقة العلم فيها، فتنكشف لها حقيقته التى بانكشافها لها تنبلج أنوار الحق، فتعلم علماً نسبياً ببعض المواهب والنعم المفاضة فضلاً من الله التى لا تحصى عداً ولا تستقصى حداً، ثم تكاشف بما أعده الله للإنسان من النعم التى لا تتصورها الخيالات من شهود الجمال الإلهى، والتنعم بالنعيم الأبدى ودوام بهجة لا تزول، فتكون العبادة بعد تلك التزكية شكراً لمنعم متفضل، ومسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر. وهناك حكمة علية أخرى يشهدها أهل المعرفة بالله لا يمكن أن يصرح بها إلا بالإشارة.

العبادة عمل جليل جداً تبتهج بها النفوس الزكية ونسبة شريفة تفتخر بها الأرواح الطاهرة، ومشهد لا يوصف جماله ولا كماله، تسارع إليه الأرواح الملكية، ومواجهة لملك عظيم كبير متعال، ومثول بين يدى واحد أحد فرد صمد منعم متفضل رزاق كريم.

الأمراض التى لا يمكن إزالتها إلا بالعبادة

يصاب الإنسان بأمراض نفسانية لا يمكن أن تزول عنه إلا بالعبادة كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء ٣٧، ثم أمره أن يزيل العجلة من نفسه فقال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء ٣٧، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب٧٢، ثم أمره بالعلم والعدل فى غير موضع من كتابه، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ النساء ١٢٨، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر ٩، وأمره باتقاء الشح بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ المعارج ١٩-٢٠-٢١، ووصفه بالكفور والقتور، فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ الشورى ٤٨، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ الإسراء ١٠٠، فالتقتير شئ غريزى موجود فى الإنسان وليس بشئ طارئ عليه، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف ٥٤، ثم نهى عن أكثر الجدل، فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى فى حياته الدنيا، كما يجب ووقت ما يجب وبقدر ما يجب، وأن يميط عنه ما يضر ولا ينفع قبل خروجه من الدنيا حسب ما وردت به الشريعة، فإنه إن لم يتطهر من هذه النجاسات ولم يزل عنه أمراض نفسه؛ ولم يجد سبيلاً إلى نعيم الآخرة، بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا.

بالعبادة طهرة القلب

فالمتطهر تُرفع عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقاً والباطل باطلاً، فلا يشغله إلا ما يعنيه ولا يتناول إلا ما يعينه فيحيى حياة طيبة، كما قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ النحل ٩٧، ولا يصير ما حصله فى الدنيا وبالاً عليه وعذاباً كما قال تعالى واصفاً الكفار: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ التوبة ٥٥، والمتطهر يصبح قلبه محل السكينة والأرواح الطيبة، كما وصف الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ الفتح ٤، ويعرف الطريق التى بها التوصل إلى جنة المأوى، ومصاحبة الملأ الأعلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيسارع فى الخير ويسابق إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السماوات والأرض.

بدون العبادة تبقى النجاسات

ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقر الشر والآثام، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الشعراء ٢٢١-٢٢٢، فلا يجد سبيلاً إلى سعادة الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ۝ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ المعارج ٣٨-٣٩، فنبه على أنه لا يصلح لجنته ما لم تتطهر ذاته عن أشياء هى مخلوقة فيها، وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ آل عمران ١٩٧، فالواجب على الإنسان أن يراعى هذه القوة فيصلحها ويستعملها على الوجه المطلوب، حتى يكون كمن وصفهم الله فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ النحل ٣٢.

حكمة وجود النوازع فى الإنسان

وقد يقع للإنسان شُبه فى أمر هذه النجاسات فيقول: أترى ذلك من عند غير الله؟ فإن كان من غيره فأين مصدره؟ وإن كان منه فما معنى وجوده فى الإنسان مع أمره بأن يزيله؟ فأقول: ما من شئ أوجده الله إلا وفيه حكمة ومنفعه، وإن لم يعرف ذلك الإنسان، لكن من الأشياء ما نفعه فى وقت مخصوص، أو إذا كان على قدر مخصوص، ثم إذا استغنى عنه أو زاد على قدر ما يحتاج إليه، يجب أن يزال، والشواهد على ذلك كثيرة، انظر إلى حبل السرة بعد ولادة الطفل فقد كان ذلك الحبل طريق الغذاء للطفل ولكن بعد الولادة لا يحتاج إليه، ويجب أن يزال حتى لا يموت الطفل، وكذلك الشعر، والظفر، يحتاج إليهما، ولكن يجب ألا يزيدا عن حد مخصوص.

الفضيلة وسط بين رذيلتين

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ الإسراء ٢٩، فالبخل رذيلة من الرذائل، وهو حبس المال عن إنفاقه فى الأوجه المشروعة له، والإسراف رذيلة كذلك، وهو صرف المال بغير ضابط ولغير الأوجه المطلوبة، والله يريد من العبد أن يكون وسطاً فى كل شئ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ البقرة ١٤٣، فلا يسرف ولا يقتر على نفسه.

إصلاح قوى الإنسان

ومعلوم أن القوى قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر يجب تهذيبها، فتهذيب قوة الشهوة تنتج العفة؛ فتحصل للإنسان مناعة من الشره، ويتحرى المصلحة فى المأكول والملبس والمشروب والمنكوح، وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية، وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيتحرر من الجبن والتهور والحسد ويتحرى الاقتصاد فى الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك. وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والخبث، ويتحرى الاقتصاد فى تدبير الأمور الدنيوية، وبإصلاح هذه القوى يحصل الإنسان على قوة العدالة، فيقتدى برسول الله ﷺ فى تزكية نفسه وحسن معاملته لغيره، فنَفْس الإنسان معادية له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يوسف ٥٣، وقال ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) فمن أدبها أو قمعها أمن ظلمها، دليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه ١١٢، أى لا يخاف أن تظلمه نفسه الشهوانية، فالأعمال الصالحة حصن منها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥، فإذا أقام المسلم الصلاة إقامة تجعله عالماً بمعنى ما يعمل متيقناً نسبته فى عمله، وكمالاته الحقيقية عند مواجهته فى الصلاة التى هى أضداد صفات الحق، شهد بعين سره نور مواجهة إله عظيم كبير معبود علىٍّ موفق هاد، فينجذب بالكلية إلى التخلق بتلك الأخلاق الربانية، والتجمل بالحظوة لتلك الجلوة العلية، ويقوى اشتياقه إلى دوام مواجهة هذا النور المشرق الذى هو قرة عين العارفين، وسر قوله ﷺ: (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) وقوله ﷺ: (أبردوا بالصلاة).

ومن لم تزك نفسه لا تصح له تلك المواجهة، فيقف فى الصلاة بجسمه وقلبه يتقلب فى طمع أو شح أو هوى، لم يكن ذلك لأن الله تعالى محجوب عن سره، بل لأن سره محجوب عن مواجهة الحق، ونفسه مسجونة فى نجاستها ولقسها ودنسها، والأولى للمسلم أن يسارع إلى أهل الله الذين تزكوا بصحبتهم نفسه ويزول بحبهم لبسه، حتى تشرق عليه أنوار القربات وتصح له أسرار المواجهات، وأكمل المواجهات هى عند إقامة الصلاة.

متى تتحقق صفة العبادة

إن إثبات صفة العبادة الحقة لا يتحقق للعبد إلا بمعنيين لابد منهما وبدونهما لا يكون العابد عابداً إلا عند نفسه وهما:

١ شهود أنه عبد له وجود بالله تعالى، وعليه حقوق لله سبحانه وتعالى.

٢ وشهود المنة عليه بتوفيق الله له، بالقيام بما افترضه عليه.

وما ندبه إليه حتى يكون عبداً عاملاً بمقتضى العبودية، موحداً منزهاً الحق جل جلاله عن الشرك فى وحدة الأفعال، فإن جَهِل حقيقته فى وجوده بالله تعالى، وعبد الله الف سنة غير مُشاهد منة الله عليه، ونعمته العظمى الواصلة إليه بتوفيقه بما كلفه به وطلبه منه، كان عمله ممزوجاً بالشرك محجوباً عن مكاشفة أنوار التوحيد.

فإذا وقف العابد المشاهد فى صلاة استحضر أنه عبد مكلف، وشهد منة الله عليه بالتوفيق والمعونة، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وواجه بسره وروحه وقلبه قدس الجبروت الأعلى وبجسمه بيت الله الحرام، فكان جامعاً فارقاً. وما عمل عملاً من القربات إلا وهو على هذا الكمال الذى كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، ممن بلغ بهم الكشف مبلغاً لا يبلغه أحد بعدهم من العابدين، فإنهم رضى الله عنهم وأرضاهم كان أصغرهم فى جمع الجمع مع فرق الفرق فى آنٍ واحد، والحقيقة أنه لا جمع إلا بعلم لدنى ولا علم لدنى إلا بعلم شرعى يكون العامل فيه عاملاً عن علم بالأحكام وفهم للحكمة، سر قوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم). وإنما الجمع الذى يعنيه رضى الله عنه هو ذوق أسرار التوحيد بعد استحضار معانى الصفات والأسماء، ثم مشاهدة آيات الواحد سبحانه، دالة على أنه القادر الحكيم الظاهر الباطن المريد الفاعل المختار.

حقيقة التعصب للدين والعبادة

ليس التعصب للدين بالإنكار على الفرد المتهاون بحالة تنفر، ولا بالتشنيع على المتساهلين بأساليب تبغضهم. إنما التعصب للدين حقيقة أن تتعصب لدينك أولاً على نفسك لتجملها؛ فتقوم عاملاً بحقيقة أحكامه حتى يسهل عليك أن تعمل ما كان يصعب عليك، ثم تجاهد إخوانك كمجاهدتك لنفسك، فإذا آنست من نفسك وإخوانك العمل بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وجب عليك أن تنبه قلوب إخوانك إلى كمالات الدين بعملك ابتغاء مرضاة الله، وبقولك الحكمة مع المحافظة على كل ما أوجبه الشرع من العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، ومع الزهد فيما لا حاجة لك إليه، وطلب ما لابُد لك منه من وجوهه الشرعية، وبذل ما لا يضرك بذله لأهل الحاجة، حتى تكون إماماً تعمل وتقول، سر قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ آل عمران ١٠٤.

أوصاف الداعي إلى الله

ومعنى ذلك أن الذين يأمرون بالمعروف لابد أن يكونوا على أكمل الأوصاف المرضية شرعاً، من الغيرة على الدين والعمل بالقلب والجوارح واللسان، فإذا تكون فى المجتمع الإسلامى من تفضل الله عليهم بمواهب التعصب للدين، أشرقت أنوارهم على جميع المجتمع، فتكونت فيهم عصبية للدين لا يخافون الموت ولا يخشون الفوت، يرون الحق أولى بهم من أنفسهم وأعز عليهم من أرواحهم، وأنه الخير الحقيقى المقصود لذاته، وكل خير تدعو إليه النفس لم يكن بالحق وللحق يرونه شراً وهلاكاً، عندئذ ينزل الله السكينة عليهم ويثيبهم فتحاً قريباً، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ النور ٥٥،بَيَّنَ الله تعالى بهذه الآية الشريفة أن جميع الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالجسد الواحد، كل واحد منهم ككل عضو من الجسد، لأنه أخبر سبحانه بما أعده للجميع من الاستخلاف فى الأرض وتمكين الدين لهم، فجعل هذا الفضل كالخير الذى يمنحه الوالد لأولاده الذين هم فى رتبة واحدة من النسب، بل هذا النسب الإلهى هو النسب

حقاً الذى به نيل الخير فى الدنيا، مجداً وعلواً فى الأرض بالحق، والفوز بفردوس الله الأعلى يوم القيامة، وكفى بنسب الإسلام شرفاً أن ننال به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

أقسام العبادة

العبادة تنقسم إلى خمسة أقسام، وهى المقصودة فى الحديث الشريف: (بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً).

أولاً: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها

معلوم أن العقيدة هى عقد القلب على علم بمعلوم عقداً قوياً مؤكداً، وفى ذلك الإشارة إلى أن المسلم يجب عليه أن يكون علمه التوحيد عن يقين وتمكين، لأن الموقن حقاً بالتوحيد هو الذى يسمى مسلماً حقاً، لقيامه بشعائر الإسلام عن وجد وشهود. والعقيدة الإسلامية هى تصديق القلب بحقيقة ما عليه الأمر فى ذاته فى نفس الأمر، وطريق ذلك خبر الصادق الأمين، بعد أن يكون المتلقى صحيح الجسم كامل العقل سريع الفهم قوى الفكر معافاً من أمراض الحظ وعمى الهوى، وبذلك يكون مؤمناً حقاً قائماً بما أوجبه الشرع، عاملاً من عمال الله، خليفة من خلفاء ربنا سبحانه وتعالى، وبدون تلك الشروط لا يبلغ المسلم الكمالات إلا بقدر ما تجمل به من تلك الشروط التى هى كالآلات والأدوات لكشف أسرار الدين وفك رموزه، فإن المعانى الإلهية من الكمالات الربانية والجمالات والجلالات لا يدركها العقل من حيث إنه عقل، إلا بقدر ما يتضح له من الدلائل، وأكثر الدلائل معان قائمة بمبان مقيدة، بأدوات وآلات وكيفيات تتفاوت العقول فى إدراك خواصها، فضلاً عن غوامض أسرارها، وكيف لا والإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام وهو يجول بعقله فى ميدان الآثار يرفع الخلف أُس السلف حتى عصرنا هذا، ولا تزال خواص الكائنات تنكشف شيئاً فشيئاً للعقول، وتظهر مكوناتها مدهشة

للمفكرين، محيرة للمتأملين، ولا عجب فإن القادر البديع الحكيم خلق الكون وسخره للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ الجاثية ١٣، وأمد الإنسان بالعقل، وجعل له السلطان على الآثار لتظهر حكمة التسخير، ولو نظر الناظر إلى ما اكتشفه الإنسان من خواص النباتات والجمادات والمعادن لمعاجلة المرضى، وما استخدمه بما وهبه الله من قوة العقل من البخار والكهرباء وما اخترعه من أنواع الصناعات الغريبة والفنون العجيبة، التى كلها إما لراحة الإنسان وخيره،أو لراحة فئة وشقاء آخرين.

فالأول كعلم الطب والعمارات والتربية وعلوم الحكمة العملية.

والثانى كفنون السياسات وتدبير الممالك واختراع الآلات الجهنمية لقهر بنى الإنسان، ومع هذا كله فلا تزال الآثار كنوزاً لم تفك رموزها وخزائن خيرات لم تفتح أبوابها ورياض أفكار لم تفتق أكمامها، وهى بما فيها من الخواص معارج لمن سبقت لهم الحسنى، ومدارج لمن سبقت لهم السوءى.

فالإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا مع ما بلغه من الفنون والصناعات؛ عاجز عن الحيطة بخواص المادة مما أودعه المنعم المتفضل النافع المعطى الوهاب من فضله فى الآثار، ووهب لبنى الإنسان القوى التى تكشف الستار عنها للنفع العام، هذا هو أفق العقل.

فإذا انكشف للعقل هذا الأفق فصار مبيناً، يوقن أن لهذه الآثار مبدعاً حكيماً، يصوره بقدر ما أدرك من هذه الآثار، لا بقدر ما يليق بالجناب العلى المقدس.

التسليم والإيمان شرط فى كمال الإسلام

ولا يكون الإنسان مسلماً كامل الإسلام إلا إذا شهد بنور التسليم والإيمان، لا بعيون العقل والإمكان آيات القادر الحكيم، مشرقة أنوارها فى تلك المبانى، دالة على كمال التنزيه، والعلو، والعظمة، والتقديس، والكبرياء، لذات الواحد الأحد سبحانه وتعالى، تنزيهاً وتقديساً يليقان بجناب الكبير المتعال، الذى لا تدركه سبحانه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، ولا تحوم حوالى عزته وجلاله أنوار عيون الروحانيين، ولا بصائر أولى العزم

المكرمين ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الزمر ٦٧، وإذ لا يمكن للعقول وإن كملت، ولا للنفوس وإن تزكت، أن تبلغ درجة الإيمان الكامل إلا بخبر الصادق ﷺ، والتسليم لحضرته المحمدية صلوات الله وسلامه عليه، وبشئ آخر لابد منه وهو النور الذى يجعله تعالى فى القلب، فضلاً وكرماً المعبر عنه بالعقل الموهوب، فإن العبارات لا تفى بالكمالات الإلهية، بل ولا بالكمالات المحمدية؛ إلا بمشاهدة بنور الإيمان، وتسليم حق وفقه للبيان.

كل إنسان مؤهل لمعرفة تحصل بها النجاة

ولو أن كل فرد من بنى الإنسان وهبت له تلك المواهب؛ لما اختلف اثنان فى الحق، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن تطالب الإنسان بمعرفة الله بقدر ما لو قصر عنه الإنسان لهلك، لأن أصغر إنسان مؤهل لأن يعرف الحق سبحانه معرفة تحصل بها النجاة من الهول، والسلامة من المقت والسخط، وتتفاوت بعد ذلك مقامات أهل الخصوصيات فى هذا المجد العلى، والخير الحقيقى، فمن الأفراد الخصوصيين من يهب له الله مواهب يبلغ مكاشفة المقربين؛ حتى لا يقع بصره إلا على وجه الله العظيم، ولا يسير به وطر إلا إلى الجناب المقدس، ولا تلم به لمة إلا ملكوتية. هذا النور هو الفضل العظيم الذى يجعله الله للعبد، به يكشف أسراراً هى الآن غيباً. وكانت شهوداً قبل، وهى تجلى الرب سبحانه وتعالى يوم ﴿أَلَسْتُ﴾ الأعراف ١٧٢، وأخذه العهود على الإنسان بعد الاعتراف بالتوحيد، والإقرار لله سبحانه بالربوبية، فإن تلك الحضرة لا يشهدها العقل؛ وإنما تشهد بعيون الإيمان، وبنور التسليم الذى يجعله الله فى قلب العبد، ولا شك أن ما ظهر عن تلك الآثار من الآيات الجلية إنما هى إشارات لكمالات المبدع الحكيم القادر، ومراء تمثل للقلوب السليمة كالمثل الذى يضرب لتقريب الحقيقة، وإيضاحها بقدر ما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ابراهيم ٢٥، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ النور ٣٥.

من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور

فكل إنسان لم يجعل له الله النور تسترت عنه الآيات وحجبت عنه البينات، وصار ضالاً فى فيافى الحظوظ والأهواء وعاملاً مجداً للفوز بحظه العاجل ولذته الفانية، لأنه لم تنكشف له آيات الحق الدالة على كمال قدرته وعجائب حكمته وجميل إيجاده وإمداده، وما أعده من الكمالات والنعيم الأبدى لمن اهتدى بهدى سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فيكون الذى حرمه الله من هذا النور كالأنعام بل هو أضل سبيلاً.

كل تلك المقامات أرى أنها لا بد منها، ولولا أن هذا المختصر لا يسع البيان كل البيان لاستوفيت الموضوع، وقد شرحت بعض أسرار من الآيات المنبلجة فى الآثار فى كتاب معارج المقربين، وجملاً من الكمالات والمقامات التى ينالها الإنسان بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ فى كتاب " أصول الوصول لمعية الرسول" ، وأشرت إلى شئ من وجوه التفكر فى السماوات والأرض وما فيهن، ببيان يجعل القارئ يشهد من أسرار الآيات ما يجعله فى مزيد من الإيمان، وكمال الإقبال على الله سبحانه وتعالى المنعم بكل تلك النعم فى كتاب النور المبين لعلوم اليقين، فأكتفى هنا بما بينته.

الطريق الموصل للخير الحقيقى

ويحسن أن أقول أن العقل لا يعقل بإدراك تلك الأسرار، ولا يمكنه أن يبلغ مبلغاً بالإنسان يجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بل ولا يقتدر أن يجعل الإنسان سعيداً فى مجتمع مدنى سعادة معقولة، يعم خيرها أفراد بنى الإنسان، فإن له منطقة خاصة به لا يتعداها، وإن كان هو الآلة لكل الخير، فإنما يجول فى مادة موجودة ليخترع ما يلائمه، أو يستنتج منها نتائج معنوية تدل عليها بطريق الالتزام، مما قد يخطئ فيه أو يصيب، فلم يبق طريق يبلغ به الإنسان الحقيقة والخير الحقيقى فى الدنيا والآخرة إلا خبر الصادق، الذى يقيم الحجة للعقل أنه صادق حقاً، فيسلم له ويستسلم. لديها يفوز بكل خير عاجل وآجل، ولا يمكن أن تتلقى العقيدة التى بها النجاة إلا من هذا

الطريق، وقد شرحت جملاً فى كتاب " أصول الوصول" ، ولكن لابد أن أبين ما الحاجة ماسة إليه، حتى لا يخلو هذا المختصر من أصل الأصول فأقول وبالله التوفيق.

أساس العقيدة

العقيدة المأخوذة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ مأخذها كتاب الله تعالى، وبيان رسول الله ﷺ، وما قرره بعد ذلك أئمة الهدى رضوان الله عليهم، وقام بتدوينه أهل العلم المخلصون خدمة للأصل الأول من أصول الدين، الذى هو رأس المال لكل مسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء ٤٨، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ الأنبياء ٢٥، وقوله جل شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الزخرف ٩، وقال ﷺ: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) وقد أجمع المسلمون جميعاً عليها إلا ما اختلف فيه، والخلاف بينهم من رضى الله عنهم فى أمور جزئية اقتضتها مقاماتهم من العلم بالله تعالى، وكلهم خائفون من الله سبحانه وتعالى. ومراتب الخوف متفاوتة، فالسلف الصالح رضوان الله عليهم خافوا وسلموا علم ما ورد مما يقف العقل دون إدراكه إلى الله تعالى، إجلالاً لكلام الله تعالى الذى هو صفة من صفاته، والخلف خافوا فتأولوا ما ورد للوسعة فى ذلك إجلالاً للجناب المقدس أن تتصوره العقول، (وإنما الأعمال بالنيات)، وكلهم مؤمنون بذلوا وسعهم فى خدمة العلم، وتقرير الحق والله واسع عليم.

وإنى أحب الكل، وأسأل الله تعالى أن يتقبل أعمالهم بقبول حسن، وأن يغفر لى ولهم. وأحب أن كل مسلم يتعلم ويعمل، فإذا تعلم وعمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، وهذه هى العقيدة.

ثانياً: إقام الصلاة

الصلاة عماد الدين وأساسه وشكر المنعم المتجدد على عميم نعماءه المتكرر فى كل يوم جديد، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ طه ١٤، وقال ﷺ: (الصلاة عماد الدين) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ النساء ١٠٣، وقد اختار الله تعالى الذين مع حبيبه محمد ﷺ، واختار لهم الصلاة فقال: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ الفتح ٢٩، وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين على التحقيق أنهم يقيمون الصلاة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأنفال ٢-٣، وعنه ﷺ قيل: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة لوقتها) وقال ﷺ: (بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة) فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها من الدين أضيع، وأعلم أنك فى صلاتك تناجى ربك فانظر كيف تصلى، وحافظ فيها على ثلاث أمور لتكون من جملة المحافظين وهى:

١ إقامتها. ٢ المحافظة عليها. ٣ المحافظة على الطهارة.

فإن الله تعالى إنما يأمر بالإقامة، ويقول سبحانه أقم الصلاة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ البقرة ٤٣، ولم يقل سبحانه صل، أو صلوا، ويثنى سبحانه على المحافظين على الصلاة فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ الأنعام ٩٢.

والمحافظة تكون أولاً بالمحافظة على الطهارة، قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ التوبة ١٠٨، وقال ﷺ: (لا يقبل الله صلاة بغير طهور) وقال عليه الصلاة والسلام: (الطهور نصف الإيمان). وقال ﷺ: (مفتاح الصلاة الطهور). فالمحافظة على الطهارة بأن يسبغ الوضوء قبل الصلاة؛ بأن يأتى بجميع سُننه وأذكاره المروية عند كل وظيفة منه، ويحتاط أيضاً فى طهارة ثيابه وطهارة بدنه وطهارة الماء الذى يتوضأ به احتياطاً لا يفتح عليه باب الوسواس، فإن الشيطان يوسوس فى الطهارة فيضيع أكثر أوقات العبادة.

❊ ❊ ❊

المقصود من الطهارة

واعلم أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارجى، ثم من طهارة البدن وهو القشر القريب، ثم من طهارة القلب وهو اللب الباطن، طهارة القلب من نجاسات الأخلاق المذمومة. ولا يبعد أن يكون للطهارة الظاهرة أيضاً تأثير فى إشراق أنوارها على القلب، فإنك إذا أسبغت الوضوء، واستشعرت نظافة ظاهرك، صادفت فى قلبك انشراحاً وصفاء ما كنت تجده من قبل، وذلك للعلاقة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته. إنما هبوطه إلى عالم الشهادة كالغريب عن أهله. وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح، فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب وبذلك أمرنا الله تعالى بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التى هى من عالم الشهادة، وجعلها رسول الله ﷺ فى الدنيا ومن الدنيا، وقال: (حبب إلى من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة) فلا يبعد أن يفاض من طهارة الظاهر أثر على الباطن. فإن كنت لا تصادف بعد الطهارة وإسباغ الوضوء شيئاً من الصفاء؛ فاعلم أن الدرن الذى عرض على قلبك من كدورات شهوات الدنيا وشواغلها أرمد عين القلب فصارت لا تشهد باللطائف الأشياء الخفية اللطيفة، ولم يبق فى قوته إلا إدراك الجليات إن بقى، فاشتغل بجلاء قلبك وتصفيته، فذلك أوجب عليك من كل ما أنت فيه.

المحافظة على الصلاة

وهى أن تحافظ على سنن الصلاة، وأعمالها الظاهرة وأذكارها وتسبيحاتها، حتى تأتى فيها بجميع السنن والآداب والهيئات، فإن لكل واحد منها سراً، وله تأثير فى القلب كما نبهنا عليه فى تأثير الطهارة بل أشد وأبلغ، وشرح ذلك يطول وأنت إذا أتيت بذلك انتفعت به، وإن لم تعلم أسراره، كما ينتفع شارب الدواء بشربه، وإن لم يعرف طبائع أخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه.

❊ ❊ ❊

صورة الصلاة

واعلم أن الصلاة صورة صورها رب الأرباب كما صور الحيوان مثلاً، فروحها النية والإخلاص وحضور القلب، وبدنها الأعمال وأعضاؤها الأصلية الأركان، وأعضاؤها الكمالية الإحسان، فالإخلاص والنية فيها يجريان مجرى الروح، والقيام والقعود يجريان مجرى البدن، والركوع والسجود يجريان مجرى الرأس واليد والرجل. وإكمال الركوع والسجود والطمأنينة وتحسين الهيئة تجرى مجرى حسن الأعضاء، وحسن أشكالها وألوانها. والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجرى مجرى آلات الحس المودعة فى الرأس، والأعضاء كالعينين والأذنين وغيرهما. ومعرفة معانى الأذكار وحضور القلب، عندما يجرى مجرى الحسن المودع فى آلات الحس كقوة السمع وقوة البصر والشم والذوق واللمس، واعلم أن تقربك بالصلاة كتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصيفة إلى السلطان، واعلم أن فقد النية والإخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة، والمهدى الجيفة الميتة مستهزئ بالسلطان، فيستحق سفك الدم لغفلة قلبه عن عظمته، وفقد الركوع والسجود يجرى مجرى فقد الأعضاء، وفقد الأذكار يجرى مجرى فقد العينين من الوصيفة، وجدع الأنف والأذنين، وعدم حضور القلب، فى غفلته عن معرفة معانى القرآن والأذكار، كفقد السمع والبصر، مع بقاء جرم الحدقة والأذن، ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفات كيف يكون حاله عند السلطان؟ هذا مثال العبد لعبد مثله، فكيف بمن يتقرب إلى خالقه ومبدعه المواجه لجماله العلى، وعزته وعظمته، كيف يقف أمامه ويغفل عن عظمته، اللهم أعذنا من الغفلة خصوصاً عند القيام بعمل ما أمرت به، إنك مجيب الدعاء. واعلم أن قول الفقيه فى الصلاة الناقصة ألفاظها وسننها إنها صحيحة كقول الطبيب فى الوصيفة المقطوعة أطرافها أنها حية وليست بميتة، فإن كان ذلك كافياً فى التقرب بها إلى السلطان ونيل الكرامة منه؛ فاعلم أن الصلاة الناقصة صالحة أيضاً للتقرب بها إلى الله سبحانه ونيل الكرامة، وإن أوشك أن يرد ذلك على المهدى ويزجر، فلا يبعد مثل ذلك فى الصلاة، فإنها قد ترد على المصلى كالخرقة المخلقة كما ورد فى الخبر من قوله ﷺ: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً). واعلم أن أصل الصلاة التعظيم والاحترام، وإهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام.

الإخلاص فى الصلاة من المحافظة عليها

ومن المحافظة على الصلاة أن تحافظ على روح الصلاة وهى الإخلاص وحضور القلب فى جملة الصلاة، واتصاف القلب فى الحال بمعانيها، فلا تسجد ولا تركع إلا وقلبك خاشع متواضع على موافقة ظاهرك، فإن المراد خضوع القلب لا خضوع البدن، ولا تقول الله أكبر وفى قلبك شئ أكبر من الله تعالى، ولا تقول وجهت وجهى إلا وقلبك متوجه بكل وجهه إلى الله، معرض عن غيره سبحانه، ولا تقول الحمد لله إلا وقلبك عامر بشكر نعمه عليك، فرح به مستبشر، ولا تقول ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، إلا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك وأنه ليس لك ولا لغيرك من الأمر شئ، وكذلك فى جميع الأذكار والأعمال، وشرح ذلك يطول، وقد شرحناه فيما سبق، فجاهد نفسك فى أن ترد قلبك إلى الصلاة حتى لا تغفل من أولها إلى آخرها أن استطعت، فإنه لا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها.

جوابر الغفلة فى الصلاة

فإن تعذر عليك أن تكون حاضر القلب، وما أراك إلا كذلك فانظر؛ فإن كان على قدر الغفلة مقدار ركعتين فلا تعد الصلاة؛ ولكن افهم أن النوافل جوابر للفرائض، فتنفل بمقدار أن يحضر القلب فيها فى مقدار ركعتين، فكلما زادت الغفلة فزد فى النوافل حتى يحضر قلبك. العشرة ركعات بمقدار أربع ركعات، وهو قدر فرضك فمن رحمة الله تعالى عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنوافل، فهذه أصول المحافظة على الصلاة، وقد بينت ميزان الخواطر فى الصلاة فى كتاب أصول الوصول فليرجع إليه مريد المحافظة على الصلوات. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون ٩.

وما من عمل من أعمال القربات كلها إلا ومشاهده لا تخلو من شوب إلا الصلاة لأهل الخشوع والمعرفة، فإن مشاهدها العلية ترفع الحجاب عن المرتبتين، حتى تحصل المواجهة بالمكانتين، فيكن المصلى مجملاً بأكمل حلل العبد الخاشع الخانع، والله سبحانه مواجهاً له بمعانى الجمال الإلهى حتى يكون فى كل تكبيرة مشاهداً، وفى قراءة كل كلمة من كلمات الذكر الحكيم مكاشفاً بمعناها؛ سامعاً بالسمع الذى منحه الله كلام الله من الله، ويكون فى كل ركوع

وسجود فاراً إلى الله من نفسه ومن كل كائن، وبقدر فراره إلى الله يكون قربه منه، قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ العلق ١٩.

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

وإنما يقيم الصلاة من شهد معانى مكانته، شهوداً يجعله يذكر ربه، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ طه ١٤، وقد أثنى الله تعالى على المصلين ثناء جعل الأرواح الملكية تغبط المصلين الذين أثنى الله تعالى عليهم، قال: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ النور ٣٧-٣٨، ولما كانت التجارة والبيع لفظين عامين قد يراد بهما تجارة وبيع الدنيا، أو تجارة وبيع الآخرة، فإن العابد الذى يعبد الله لنعيم الجنة تاجر، والمؤمن الخالص الذى يبيع نفسه لله وماله لله بائع، والرجل الذى يخرج فى الأسواق بسلعته بائع، والذى يخرج بلا سلعة ليتوسط بين الناس وينتفع فى الأسواق تاجر.

والمؤمن الكامل لا تلهيه تجارة الدنيا والآخرة، ولا بيع نفسه لله أو بيع سلعته لغيره للربح عن ذكر الله بمعناه الحقيقى الذى به تقام الصلاة. وإقامة الصلاة التى تكون عن الذكر كشف الستار عن حقيقتك، ورفع الحجاب عن الجمال والجلال والكمال الإلهى، بقدر ما وهب الله للعبد من عيون الكشف اللائق بعبد ممنوح، لا بقدر الجناب المقدس تنزه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ الأنعام ٩١، وإنما هو قبس من لوامع جمال الفيض الأقدس، وبوارق لوامع جلال الكمال المقدس، قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ الصافات ١٦٣، هذا نذر مما يواجه به العبد المؤمن فى صلاته من مقامات القرب، ومشاهد الحب، وأما ما يعطه العبد المصلى من أسرار المراقبة بصلاته فإنه شهود نعيم ملكوتى، فتكون تلك المشاهد منتجة لفرار من المخالفات والبعد عن المعاصى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، فذكر الله تعالى فى الصلاة الذى هو إقامتها أكبر؛ لأنه يحصل به الشهود الأكبر للمصلى الذى ينتج عنه الرضوان الأكبر، وقد فصلت جملاً من البيان فى معاملة المصلين الذين يقيمون الصلاة فى كتاب معارج المقربين فمن أحب المزيد فليراجعه.

أسرار فى الصلاة

وهناك أسرار وأحوال وأنوار تمنح فضلاً للقلوب لا ترسم بالعبارة ولا تبين بالكتابة، تجعل مقيم الصلاة على قلب رسل الله السابقين صلوات الله وسلامه عليهم، فينال كل مقيم للصلاة قسطاً وافراً من مقام رسول من رسل الله صلوات الله عليهم، فقد يكون على قلب سيدنا عيسى عليه السلام، أو على قلب سيدنا موسى عليه السلام، أو على قلب سيدنا الخليل الأكبر ﷺ، كل ذلك فضل الله يتفضل به على من وفقه وأقامه بين يديه، لم يقمه سبحانه إلا لمحبوب مراد، فقد يجتمع فى المسلمين عشرات من الملايين على قلوب الرسل صلوات الله عليهم، ويجمع اللهم لهم أسرار الرسل، وأنوارهم، وأحوالهم، فيقيمهم الله تعالى مقام رسله، دعاة إليه.

منهم من يمنحه لسان العبارة فيجذب القلوب بأنوار أقواله، ويسكر النفوس بسحر بيانه، ومنهم من يزوده الله بالكرامات من مشكاة الأنوار؛ التى هى سر معجزات من هو على قلبه، كل ذلك لأن الإسلام هو دين الله حقاً، وأن الله تعالى يهب للعاملين بوصاياه أنوار الرسل السابقين جميعهم، وكم ترى فى المسلمين فى كل زمان كثيرين يكرمهم الله بشفاء المرضى، وإبراء الزَمْنَى (المصاب بعاهة)، وإحياء القلوب الميتة، وتنويع الأفكار بالحال أو بالمقال أو بالدعاء، وبعضهم يفنى عن مُراده بمراد الحق وعما سوى الحق، حتى يظهره الله سبحانه نوراً لخلقه، فقد يقهره حاله فيقول للشئ كن فيكون، إحياء للسُنة وإقامة لحجج الله على خلقه وهذا يستحيل أن يوجد لأهل الأديان الأخرى، لأنهم ليسوا على الحق، ولو أراد الله هدايتهم لشرح صدورهم للإسلام، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

وقد اتضح الحق جلياً، وقامت حجة الله على الخلق أجمعين، وليس لأحد من الخلق على الله حجة، والله تعالى أسأل أن يمنحنى وإخوتى جميعاً الإخلاص لذاته العلية، والصدق فى المعاملة، والحب الخالص لجنابه العلى، والرضاء الكامل عنه سبحانه، والتوفيق لما يحب ويرضى، إنه على كل شىء قدير.

❊ ❊ ❊

ثالثاً: إيتاء الزكاة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ البقرة ٢٦١، وقال ﷺ: (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدعاء) معلوم أن إنفاق المال فى الخيرات أحد أركان الدين، ومعلوم أن المال محبوب الخلق، وهم مأمورون بحب الله عز وجل، ويدعون الحب بنفس الإيمان، فجعل بذل المال معياراً لحبهم، وامتحاناً لصدقهم فى دعواهم، فإن المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب إلا ما غلب حبه على القلب، فانقسم الخلق فيه على قدر مراتبهم.

فمنهم الأقوياء وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوا، ولم يدخروا لأنفسهم شيئاً، فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق إذ جاء بماله كله، فقال له ﷺ: ماذا أبقيت لنفسك، فقال: الله ورسوله وقال لسيدنا عمر رضي الله عنه: ماذا أبقيت لنفسك، قال: مثله أى مثل ما أتيت به فقال ﷺ: (بينكما مثل ما بين كلمتيكما) ومنهم المتوسطون وهم الذين لم يقدروا على إخلاء اليد عن المال دفعة واحدة؛ ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للإنفاق عند ظهور محتاج إليه، فهم يقنعون فى حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة، وإذا عرض الأظهر فى الإمساك ترصد الحاجات. ومنهم الضعفاء وهم المقتصرون على أداء الزكاة الواجبة، فلا يزيدون عنها ولا ينقصون منها، فهذه درجاتهم، وبذل كل واحد منهم على مقدار حبه لله، ومن لا يقدر إلا على أداء الواجب فليجتهد حتى يزيد على الواجب، ولو شيئاً يسيراً فإن مجرد الواجب حد البخلاء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ محمد ٣٧، فجاهد نفسك يا أخى حتى لا ينقضى عليك وقت لا تتصدق فيه بشئ وراء الواجب ولو بكسرة خبز، لترفع بذلك عن درجة البخلاء، فإن لم تملك شيئاً فليست الصدقة كلها فى المال؛ لكن كل كلمة طيبة وشفاعة ومعونة فى حاجة وعيادة مريض وتشييع جنازة وكل ما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطيب قلب مسلم يكتب لك صدقة وحافظ على زكاتك وصلاتك وصدقتك على خمسة أمور.

* * *

الأمور التى يجب المحافظة عليها فى الزكاة

الأول الإسرار، جاء فى الخبر أن صدقة السر تطفئ غضب الرب والذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ البقرة ٢٧١، وبذلك تتخلص من الرياء، فإنه إذا غلب النفس تهلك، وينقلب فى القلب إذا وضع الإنسان فى قبره إلى صورة حية، أى يؤلم إيلام الحية، والبخل ينقلب فى صورة عقرب.

والمقصود من الإنفاق الخلاص من رذيلة البخل، فإذا امتزج الإنفاق بالرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية، فما تخلص من العقرب ولكن زاد فى قوة الحية، إذ كل صفة من الصفات المهلكات فى القلب، إنما غذاؤها وقوتها فى إجابتها إلى مقتضاها.

الثانى أن تحذر من المن، وحقيقته أن ترى نفسك محسناً إلى الفقير متفضلاً عليه. وعلامته أن تتوقع منه شكراً أو تستنكر تقصيره فى حقك، ومعالأته لعدوك استنكاراً يزيد على ما كان قبل الصدقة. فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلاً. وعلاجه أن تعرف أنه هو المحسن إليك بقبول حق الله منك، فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب، وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، ولذلك كانت الزكاة مطهرة، إذ بها حصلت الطهارة، فكأنها غسالة نجاسة، ولذلك ترفع رسول الله ﷺ وأهل بيته عن أخذ الزكاة، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنها أوساخ أموال الناس) وإذ أخذ الفقير منك ما هو طهرة لك فله الفضل عليك، أرأيت لو كان فصاداً فصدك مجاناً، وأخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره فى الحياة الدنيا أكان الفضل لك أم له؟ فالذى يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها فى الحياة الدنيا والآخرة ولى بأن تراه متفضلاً.

الثالث أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ النحل ٦٢، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ البقرة ٢٦٧، وقال ﷺ: (إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب) يعنى الحلال فإن المقصود من هذا إظهار درجة الحب. والإنسان يؤثر الأحب إليه، والأنفس دون الآخر.

الرابع أن تعطى بوجه مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره. قال رسول الله ﷺ: (سبق درهم مائة الف)، إنما أراد ما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من أنفس ماله وأجوده، فذلك أفضل من مائة الف مع الكراهة.

الخامس أن تتخير لصدقتك محلاً تزكو به الصدقة. وهى التقى العالم الذى يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه أو الصالح الفقير ذو الرحم، فإن لم تجتمع هذه الأوصاف فتزكو الصدقة بآحادها أيضاً.

رعاية الصلاح أصل فى العبادة

ورعاية الصلاح أصل الأمور، فما الدنيا إلا مطية للعباد وزاد لميعادهم، فلينصرف عنها المسافرون إلى الله، وليتخذوها منزلاً من منازل الطريق إليه، قال رسول الله ﷺ: (ولا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى)، هذا الركن الذى هو الزكاة هو العبادة المالية الصادقة، ولم تكن الزكاة بهذا التفصيل فى أنواع الأموال والمستحقين فريضة على ما أعلم فى غير ديننا، وذلك لأن الإسلام جعل كل فرد من المسلمين لكل فرد، ككل عضو من الجسد لكل عضو، قال ﷺ: (مثل المسلمين فى تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى كله)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج ٧٨، فجعل لنا سبحانه الأرض مسجداً وترابها طهوراً، وأحل لنا الغنائم، وجعل الزكاة من كل أنواع الأموال، وعمم النفع بها لأنواع من الناس حتى ظهر سر قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات ١٠، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ آل عمران ١٣٤.

من رموز الزكاة وأسرارها

من كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﷺ يظهر لنا مكانة كل مسلم من المجتمع الإسلامى، ومكانة كل فرد من المسلمين من كل فرد من المسلمين، ومن فتح الله قفل قلبه ففقه سر فريضة الزكاة يعلم حق العلم أن العمل فى الدنيا عمل الله تعالى، وقيام بفرض عليه لإخوانه المسلمين، وإليك كشف شئ من رموز الزكاة.

(سر أول) الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن المجتمع الإسلامى عائلة واحدة، يدلى نسبهم إلى أب واحد هو رسول الله ﷺ، وأزواجه رضى الله عنهم أمهاتهم، وكما تجب النفقة على الغنى للفقير من والديه إذا عاقه عن العمل مرض ظاهر، أو فساد فى قوة العقل، فكذلك يجب على الغنى أن ينفق على أخيه فى النسب الإسلامى بقدر ما أمره الله سبحانه وتعالى، فيكون الغنى بر والده الأعظم رسول الله ﷺ فى ابنه الذى هو أخوه المسلم، قال ﷺ: (أدخل الإسلام بلالاً فى نسبى وأخرج الكفر أبا لهب من نسبى) وقال ﷺ: (سلمان منا أهل البيت) فالمسلمون أبناء رجل واحد هو رسول الله ﷺ والغنى من المسلمين هو أخ الفقير وكنزه وخزينته، فلا يرضى أن يجوع أخوه وهو شبعان، لأن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين، فإن الغنى عارية، فلعله يأتى عليه يوم وهو فقير يتمنى أن يعينه إخوانه، وما كان يتمنى الفقير منه المعونة.

(سر ثان) أن تأدية الزكاة تلقى المحبة فى قلوب الفقراء، فينال منهم عواطف تلك القلوب المتوجهة إلى علام الغيوب، ومقبول دعاء تلك الألسنة المبتهلة إلى الله تعالى، وحب تلك النفوس التى ترى أنك يا أخى بإعطائك الزكاة إياهم نجيتهم من آلام الجوع، والعرى، فيكون الفقراء لك زينة فى الرخاء، ودروعاً وسيوفاً فى الشدة.

(سر ثالث) أنك يا أخى إذا أخرجت الزكاة طيبة بها نفسك، وعلمت أن هذا العمل فرض عليك؛ اعتقدت أن المال لله يتصرف فيه كيف يشاء، فتكون وفيت بالبيع الذى بعته لله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التوبة ١١١، وتكون بنص تلك الآية الشريفة ممن بشرهم الله تعالى بالجنة.

(سر رابع) بإخراجك الزكاة طيبة بها نفسك، تعيش مطمئن القلب من خوف مصيبة أو بلية، صحيح البدن من خوف ألم أو مرض، وذلك لأنك بإخراجك الزكاة يحصل لك انشراح صدر لاعتقادك أنك طهرت مالك، وحصنت نفسك بتأدية الزكاة، من يؤد الزكاة على الوجه الذى أمره الله شاعراً بالرحمة بالفقراء والعطف على المساكين، فلا شك أن يكون رحمانياً لا يظلم الناس لا فى بيع ولا فى شراء، ولا يسئ جاراً له، ولا يقطع ذى رحم، ولا يعق والديه، ولا يسعى فى سوء أو فساد بين الناس.

من غوامض أسرار الزكاة

للزكاة أسرار غامضة يشهدها من أقامه الرب سبحانه خليفة عنه، حتى يكون المشاهد فى إخراج الزكاة خليفة عن ربه فى الإعطاء، عبداً مطيعاً لمولاه، وعاملاً مخلصاً من عمال الله، وعبداً مسكيناً فقيراً وهبه الله خير مواهبه، وواجهه بأكمل مواجهاته العلية، وتلك الأسرار لا تفى بها عبارة المعبرين، ولكنها نعمة من الله تعالى سر قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٢، وقوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) والعارف إذا أشار للمريد السالك كانت الإشارة أفصح من العبارة له، قال ﷺ: (المؤمن يكفيه قليل الحكمة) وهناك نوع آخر من أنواع الزكاة وهى تزكية النفس، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ المؤمنون ٤ وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الأعلى ١٤-١٥، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس ٧-٩.

تزكية النفس أصل الأصول

تزكية النفس فى الحقيقة الأصل الذى تؤسس عليه الأصول وتقوم به الفروع، ومن جاهد نفسه وهواه فى ذات الله بلغ غاية مناه، ومن أهمل تزكية نفسه كان كالحيوان الأعجم، وإن عمل كل القربات فهو إنما يقلد غيره كالقردة والنسانيس، ما دام لم يجتهد فى صفاء جوهر نفسه، وتطهيرها من نجاستها، ومن زكى نفسه عرفها، ومن عرف نفسه عرف ربه، وقد فصلت طرق تزكية النفس وتصفية جوهرها وعلاجها من أمراضها لإعادة الصحة إليها، والمعدات التى تحفظ الصحة عليها فى مختصرى هذا فى باب الغرض من العبادة، وفى كتاب "معارج المقربين" فى قسم علوم النفس، وفى كتاب "شراب الأرواح" إلى آخره، فأكتفى فى هذا المختصر بتنبيه أخى إلى العناية بتزكية نفسه، حتى يمكنه أن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة، ويحج البيت ويصوم رمضان، ويقوم لله فى كل ما أوجبه عليه، مشاهداً أسرار حكمة أحكامه، وغوامض ما تعبدنا سبحانه وتعالى به، والله أسأل أن يمنحنا الفقه والحكمة، والمعونة على طاعته وشكره وذكره، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

رابعاً: صوم رمضان

الصيام: الفريضة التى هى ترك فى الحقيقة، وهو العمل الروحانى الذى يصير الإنسان فيه كالملائكة الروحانيين، لترك ضروريات الحياة الجسمانية، ولوازم النفس الحيوانية، وهو رمز يشير إلى أن الإنسان حيوان وملك، فهو بقوته الحيوانية يعمل أعمال البهائم، وبقوته الملكية يعرف الله ويعبده، ويتشبه بسكان ملكوته الأعلى، فيترك لوازم قواه الحيوانية بالصوم، ليتذكر قوته الملكية، ولتطهر نفسه من كثافة التوسع فى الأعمال الحيوانية، فإن النفس يقوى طمعها وميلها إلى الحرص والأمل والحماقة والخيانة وبغض بنى نوعه كلما توسعت فى كل ما يقوى الحيوانية، ويكون بذلك بعيداً عن رتبة الإنسان قريباً من الأنعام، لتشبهه بها، فإذا قلل من ضروريات حياته الحيوانية وتشبه بحياته الملكية من الصوم والنفقة كان أشبه بالملائكة منه بالحيوان، وكان الصيام تزكية لنفسه، وشفاء لها من أمراضها، وصفاء لجوهرها حتى تتكمل بكمالها الحقيقى الذى تكون به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمها الملائكة.

الصوم تجمل بجمال الروحانيين

فالصوم عبادة من حيث أنه فرض فرضه الله، وشفاء من حيث أنه يرد للنفس صحتها، وتزكية من حيث أنه جلاء للنفس من التطرف عن الجادة الوسطى التى هى الفضيلة، وبه تتجمل النفس بالرحمة والصلة والبر والإحسان والتواضع، فيكون الصائم عبداً عاملاً لله بتركه ما نهاه الله عنه من الأكل والشرب، وملامسة النساء، مما أباحه الله له فى غير رمضان، فيكون متجملاً بجمال الروحانيين، ومتخلقاً بأخلاق الله من الرحمة والعفة والإحسان والود والشفقة، ومجاهداً نفسه فى ذات الله بحبسها عن شهواتها، فيكون له بإطاعة الأمر النعيم المقيم، وبالتشبه بالروحانيين مشاهدة ملكوت الله ونعيم النظر إلى وجهه سبحانه، فما أيسر ما ترك، وما أعظم ما نال، وقد شرحت أركان الصوم وسننه، وآداب الصائمين، وتنزيه سر الصائم فى كتاب أصول الوصول، ومعارج المقربين، ولكن رغبة فى الخير لأخى ودنى الله وإياه بفضله العظيم ورحمته أحببت أن أبين له مزيداً من مختصرى هذا.

قال رسول الله ﷺ: يقول الله سبحانه: (كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به). وقال عليه الصلاة والسلام: (لكل شئ باب وباب العبادة الصوم).

خصوصية الصوم

وإنما كان الصوم مخصوصاً لأنه عملان عظيمان:

الأول: كف النفس وهو عمل سرى لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى، كالصلاة والزكاة وغيرها.

الثانى: أنه قهر لعدو الله. فإن الشيطان هو العدو، ولن يقوى العدو إلا بواسطة الشهوات. والجوع يكبح جماح الشهوات التى هى آلة الشيطان، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام: (إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع). وهو سر قوله ﷺ: (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنان وغلقت أبواب النيران وصفدت الشياطين ونادى مناد، يا باغى الخير هلم ويا باغى الشر أقصر).

درجات الصوم

واعلم أن الصوم بالإضافة إلى مقداره على ثلاث درجات، وبالإضافة إلى أسراره على ثلاث درجات. أما درجات مقداره:

الأولى: أقلها الاقتصار على شهر رمضان.

الثانية: أعلاها صوم داود عليه السلام، وهو أن تصوم يوماً وتفطر يوماً، ففى الخبر الصحيح: إن ذلك أفضل من صوم الدهر، وأنه أفضل الصيام. وسره أن من صام الدهر صار الصوم عادة فلا يحس بموقعه فى نفسه بالانكسار وفى قلبه بالصفاء وفى شهواته بالضعف، فإن النفس تتأثر بما يرد عليها، لا بما مرنت عليه فلا يبعد هذا، وأن الأطباء أيضاً ينهون عن اعتياد شرب الدواء، وقالوا من تعود هذا لم ينتفع به إذا مرض، إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به، واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان، وهو سر قوله ﷺ لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم فقال عليه السلام: (صم يوم وأفطر يوماً..) فقال أريد أفضل من ذلك: فقال ﷺ: (لا أفضل من ذلك) ولذلك لما قيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً صام الدهر فقال ﷺ: (لا صام ولا

فطر). وكلما قالت عائشة رضى الله عنها لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت.

الثالثة: أوسطها أن تصوم ثلث الدهر، ومهما صمت الإثنين والخميس وأضفت إليه رمضان فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام، وهو زيادة على الثلث. لكن لابد أن ينكسر يوم من أيام التشريق وترجع الزيادة إلى ثلاثة أيام، ويتصور أن ينكسر فى العيدين يوماً فتكون ثلاثة أيام فترجع الزيادة إلى يوم واحد فتأمل حسابه تعرفه فلا ينبغى أن ينقص عن هذا القدر صومك، فإنه خفيف على النفس وثوابه جزيل.

أسرارالصوم

وأما درجات أسراره فهى:

الأولى: أن يقتصر على الكف عن المفطرات، ولا يكف جوارحه عن المكاره، وذلك صوم العموم وقناعتهم بالاسم.

الثانية: أن تضيف إليه كف الجوارح فتحفظ اللسان عن الغيبة، والعين عن النظر إلى الزينة، وكذا سائر الأعضاء.

الثالثة: أن تضيف إليه صيانة القلب عن الفكر والوسواس، وتجعله مقصوراً على ذكر الله عز وجل وذلك صوم الخصوص وهو الكمال، ثم للصيام خاتمة بها يكمل وهو أن يفطر على طعام حلال لا شبهة فيه، وأن لا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضحوة فيكون قد جمع بين أكلتين دفعة واحدة فتثقل معدته، وتقوى شهوته، ويبطل سر الصوم وفائدته، ويفضى إلى التكاسل عن التهجد، وربما لم يستيقظ قبل الصبح، وكل ذلك خسران وربما لا توازيه فائدة الصوم.

هذا ما كان عليه السلف الصالح، وقد بينت أركان الصوم وفرائضه فى الكتب السابقة فأكتفى هنا بما ألمعت إليه، والله سبحانه يوفق إخوتى المؤمنين بأركان الشريعة على وجهها

الأكمل، وأن يمنحنى وإياهم مقام المراقبة فى الأعمال، حتى لا يحصل منا تقصير يفسد العمل، ولا غفلة تنقص فضله، ولا أغراض ولا علل تجعله خالصاً لله تعالى، إنه مجيب الدعاء.

خامساً: حج البيت

لما كانت الأحكام الشرعية كلها لا يمكن أن يقوم بها العامل على وجهها الأكمل إلا إذا كان عاملاً بقلبه وجسمه، ولما كان كل ركن من أركان الأحكام الشرعية للقلب فيه عمل خاص، وملاحظات خاصة لا يمكن أن يكون العمل كاملاً شرعاً إلا باستيفاء تلك المعانى. ولو أن المسلم حرك جسمه بتأدية الأحكام الشرعية مع غفلة قلبه عن الاستحضار الذى يتمثل فيه لمن العمل ولم العمل ومن هو العامل وما الغاية الباعثة عليه، كان العمل ناقصاً أو مردوداً لعدم استيفاء شروطه شرعاً.

وهذا لغفلة القلب؛ فإن الأعمال البدنية صور ميتة، وإنما حياتها وروحها بالإخلاص فيها. والحج هو الركن المالى البدنى الروحانى، أما كونه بدنياً فلانتقال الجسم من مكان إلى مكان. وأما كونه مالياً فلبذل الأموال فى النفقة على نفسه من زاده وراحلته. وأما كونه روحانياً فلأن الحاج قاصداً ربه بانتقاله، فهو لا يقطع مرحلة كونية إلا وتقطع الروح مرحلة من مراحلها حتى تصل إلى جناب القدس الأعلى، ولهذه المعانى كلها أشار الله تعالى إلى أن من توفرت لديه معدات الحج وأهمله كان كأنه كفر، قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ آل عمران ٩٧، أى من كفر بترك الحج بعد الاستطاعة فإن الله غنى عنه وعن عمله، فالحج ظاهره الانتقال إلى مكة المكرمة، وباطنه فرار من الدنيا إلى الملكوت الأعلى بالروح، إنما يهد تلك المعانى من عمل عملاً مطابقاً لسُنة رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

ومن خرج من بيته مهاجراً إلى الله موقناً أنه سيزول البين من البين، وتقع عين بصيرته على جمال مولاه العلىِّ، كيف يكون حاله فى سيره؟ لا شك أنه يكون فى أرفع درجات الشوق إلى مولاه، وأكمل أحوال الخشوع والرهبة من ربه الذى خلقه ودعاه إلى حضرته العلية فلباه، لا تخطر على قلبه الدنيا، لاستغراقه فى الشوق إلى الله، فلا ينتقل خطوة إلا ويشهد مشاهد تنمو بها صبوته، وتقوى حالته وتجدد بها رهبته.

مشاهد الحج

يشهد فى كل ركن من أركان الحج مشاهد ملكوتية، فيشهد فى مقام الإحرام إخلاص القلب من كل حظ وهوى فى التوجه إلى الله، وتطهير السر من كل علة وغرض لمواجهة الله، وقطع كل علاقة بينه وبين أهله وولده، إقبالاً على الله ورغبة فيما عند الله وحسن ثقة بولاية الله له، وهكذا لا ينتقل من ركن إلى ركن ولا مكان إلى مكان، إلا أشهده الله ملكوت كل مكان وأسرار كل عمل من الأعمال، حتى إذا وقف على عرفات نفسه فعرف ربه، ورجع إلى بيت الوجهة بيت ربه الحرام منيباً إليه بعد المعرفة، ذاكراً جنابه العلى لا يشغله عن ذكر الله ذكر والد ولا ولد بل ولا دنيا ولا آخرة، وعند ذلك يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ثم يتجلى الغفور التواب فيمنحه بدل كل سيئة حسنة، فيرجع كيوم ولدته أمه مطهراً من الذنوب، وهو كمن عبد الله بأخلص نية طول عمره، سر قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ الفرقان ٧٠.

ولولا أن هذا المختصر وضعته لأبين للناس أجمعين لا فرق بين المسلم وغيره، أن الإسلام هو الدين؛ لما اكتفيت بهذا النزر اليسير، ولذكرت ما لا بد من ذكره فى ركن الحج مما يحتاج إليه أخى المسلم، ومن ظهر له جمالات الإسلام، علم أن ما عليه القوم من الأديان الأخرى محض ضلال وتعصب قبيح للآباء، ذلك أمر بديهى إذا نظر نظرة مريد نجاة نفسه، وراغب فى الحق ومنزه عقله وفكره عن أن يقبل غير ما يتضح نوره ويظهر دليله.

آداب الحج

قال ﷺ: (من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو إن شاء نصرانياً) وقال: (بنى الإسلام على خمس) الحديث. وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها فيما سبق لنا من الكتب ونريد أن ننبهك فى هذا المختصر على آداب دقيقة وأسرار باطنة، أما الآداب فسبعة.

الأولى: أن ترتاد للطريق رفيقاً صالحاً، ونفقة طيبة حلالاً، فالزاد الحلال ينور القلب، والرفيق الصالح يذكر الخير، ويزجر عن الشر.

الثانية: أن يخلى يده عن مال التجارة كى لا يتشعب فكره، وينقسم خاطره، ولا يصفو للزيارة قصده.

الثالثة: أن يوسع فى الطريق بالطعام، ويطيب الكلام مع الرفقاء والمكارى.

الرابعة: أن يترك الرفث والجدال والتحدث بالفضول فى أمر الدنيا، بل يقصر لسانه بعد مهمات حاجاته على الفكر وتلاوة القرآن.

الخامسة: أن يركب راحلة دون المحمل، ويكون رث الهيئة، أشعث أغبر، غير متزين، بل على هيئة السالكين حتى لا يكتب فى جملة المترفين.

السادسة: أن ينزل عن الدابة أحياناً ترفيها للدابة، وتطييباً لقلب المكارى، وتخفيفاً للأعضاء بالتحرك، ولا يحمل الدابة ما لا تطيق؛ بل يرفق بها ما أمكن.

السابعة: أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقة، وبما أصابه من تعب وخسران، وأن يرى ذلك من آثار قبول الحج، فيحتسب الثواب عليه.

أسرار الحج

وأما أسراره فكثيرة نرمز منها إلى أمرين: الأمر الأول أنه وضع بدلاً عن الرهبانية التى كانت فى الملل السابقة كما ورد به الخبر، فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فشرف البيت العتيق وأضافه سبحانه إلى نفسه وجعله مقصد العباد، وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على أمثال الملوك ليقصده الزوار من كل فج عميق، ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين، خضوعاً لجلاله، واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت، أو يحويه مكان، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم لذاته جل جلاله، ولذلك كلفهم سبحانه أعمالاً غريبة لا تناسب الطبع والعقل، ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية، وامتثال الأمر من غير معاونة وباعث آخر، وهذا سر عظيم فى الاستعباد، ولذلك

قال ﷺ: (لبيك بحجة حقاً تعبداً ورِقاً).

الأمر الثانى أن هذا السفر وضع مثالاً لسفر الآخرة، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازياً له، فإن فيه تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر المستبصر، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك؛ وداع الأهل فى سكرات الموت، ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا، ومن ركوب الجمل ركوب الجنازة، ومن الالتفاف فى أثواب الإحرام الالتفاف فى أثواب الكفن، ومن دخول البادية إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادى وعقارب القبر وديدانه، ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته، ومن التلبية إجابة داعى الله جل وعز يوم البعث، وكذلك فى سائر الأعمال فإن فى كل عمل سراً، وتحته رمزاً يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفاء قلبه، وقصور همه على مهمات الدين والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا المعونة والتوفيق لعمل ما يحب، ويجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قصائد فى العبادة

للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم

قال رضي الله عنه:

تنوعت العبادةُ للتدانى ... لتشرق شمسُ أسرار القرآن
ظهور المثنوية حال جمعى ... ومحو البين فى فرق البيان
بها النسب القريب مقام عبد ... يصح لمن تحصن بالأمان
وأهل القرب قد فقهوا فقاموا ... فجملهم بأنوار المعانى
صلاة فى صيام فى قيام ... جهاد للشهود لدى العيان
أرانى فى العبادة عبد ربى ... أراه ظاهراً عين العيان
يوفقنى لما يرضيه عنى ... ويرضينى برضوان الجنان
وحج فى زكاة فى ابتهال ... إليه ضارعاً فى كل آن
مقام عبودة قرب اتحاد ... ونور ألوهة والعبد فان
أنا عبد أرى ربى عياناً ... تنزه عن حلول أو مكان
تراه الروح فى الإقبال ربى ... سقانى خمرة رسمى دنانى
هى الآى التى لاحت لروحى ... بها جذبى إليه بلا توانى
أمامى ظاهراً حيث أولى ... أنال الفضل إحسان الحنان
يوفقنى فأعبده تعالى ... عجزت عن الثنا فلبى لسانى
أمد العبد بالإيجاد فضلاً ... أعان على العبادة والتدانى
عجزت عن الثنا عن حصر نعمى ... توالت من أياديه الحسان
بفضل منه زكى النفس ربى ... فأشبهت الملائك بالجنان
كأنى سائح فى نور قدس ... يحيط الوجه بى فى كل شان
شكرى نعمة منه تعالى ... على وقد عجزت عن البيان
لك الشكر الجميل لك الأيادى ... فجملنى بأسرار القرآن
وأيدنى بروح منك ربى ... لأسعد منك بالحسنى حنان

سرُ التكاليف رمزٌ لستَ تدريه ... وكيفَ تعلمُ سراً فيك أُخفيهِ
إن شئتَ تَعْلَمُهُ فاعدِمْ وجودَك لا ... تركن إلى الغير فى حالٍ وتُوليهِ
هذى التكاليفُ رمزٌ أنت طَلْسَمُهُ ... فأسلُبْ وجودَك فالإيجابُ ينفيهِ
عرضتُ سرى على كلِّ العوالمِ من ... حيثُ التنزُّلِ كيما قد يعانيهِ
أبىَ الجميعُ لنورٍ فيك قد سطعتْ ... شموسُهُ وبلغت اليومَ عاليه
حُمِّلتَّ عِبئاً ثقيلاً أنتَ مظهرهُ ... لِما تحملتَ من أسرارِ بارِيهِ
ها أنتَ جوهرُ كنزِ الكنز فى عماءٍ ... وأنتَ بغيتُهُ أقصى أمانيهِ
لولا وجودُ صِفاتيِ فيكَ ما ظهرَتْ ... لك الحقائقُ من أنوارِ داعيهِ
حلاكَ بالفضلِ من معنى محاسنهِ ... حتى سَمِعتَ خطاباً عنه ترويهِ
فافهمْ إذاً سرَّ تكليفيِ وكنْ فَطناً ... فأنت زهرُ رياضِ الحسنِ والتِيهِ
فى حضرتيِ سجَدتْ أملاكُناَ شرفاً ... لما تجمَّلت من معنى مباديه

قال رضي الله عنه:

فؤادى إلى هذا الجناب يسارعُ ... وقلبى إلى نورِ الحقيقةِ ضارعُ
وعهدى قديمٌ يُسكرُ الرُوحَ ذكرُهُ ... لأن حياةَ الرُّوحِ تلك المرابعُ
وإن نظرتْ عينى إلى أى كائنٍ ... تغيبُ المبانى والمعانى سواطعُ
لأن المعانى الشمسَ والكلُّ أنجمٌ ... إذا أشرقَتْ فالنجمُ بالشمسِ طالعُ
لذاكَ إذا صليتُ صليتُ فانياً ... عن اللوْنِ والأكوانِ والنورُ لامعُ
أُحْرَمُ فى التكبيرِ مشهدَ غَيْرِهِ ... وأشهدُ بالتنزيه إذْ أنا راكعُ
وأسجدُ عن نفسى وفعلى فانياً ... وأسْجدُ أخرى عن فنائيِ توابعُ
لأن سجودَ العبدِ مثلُ طوافِهِ ... بسبعِ صفات أثبتتها الشرائعُ
وعلَمنى الأسماءَ فى الجمع كلّهاَ ... وأثبتنى بالحق والحسنُ شائعُ
وما صامَ إلا عن سوى ما يحبُّه ... كذلك عبدُ الذاتِ فى القرب ساطعُ

وحمِّلنـــى تلك الأمـــانـــةَ بعــد أن   تجلَّــتْ على مـــرآةِ قلـبـــى الـــودائعُ
وبـــايعنـــى واختـــار ذاتـــى لـــذاتِه   ذقـتُ جمـــالَ العبــــدِ حين أُبـــايعُ
ولى فيه معنـــىً أننـــى أنـــا عبـــدُه   وللسيـدِ الـوهـابِ فى العبـدِ طـابعُ

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

كـــرِر الـشكـــرَ رغبـــةً فى المـــزيــدِ   فبـتكـــراره نــــوالُ الــســعـــودِ
واحمـــــــــد اللهَ دائـــماً وتــبـــتَّـــلْ   ضـــارعـــاً فى نـــوالِ فـضلِ الـــودودِ
واشتغلْ بـــالثنـــاءِ دومـــاً على مَنْ   قــد حبــاك بــالفـضلِ بعــد الـوجـودِ
وأدم ذكـــــــرَهَ بقـــــــول وقلـــبٍ   فبـــذكـــراه نـيلُ قــربِ الـــودودِ
وتــــــوكَّلْ علـــيه فى كل شــــأنٍ   فهـــو نعمَ الـوكـيلُ عنـد الـرشيـدِ
واســـألنْه مع اليقـين تـنلْ مـــا   تــرتجـيه مـن فـضِلهِ بـــالمــزيـــدِ
فهـــــو بـــرٌ ومـنعـمٌ وكــــريـم   ورءوفٌ ومـنعــمٌ بــــالمــــزيـــــد
لـــو تـنـــاديه بـــاليـقـين يُلبـــىّ   بعـطـــايـــا لا تُحـصرن بـــالحـــدودِ
وهـــو مــولاك فـــاتخـــذْهُ وكـيلاً   ومُعـيـنــــا فى كلِّ أمـــرٍ شـــديـــدِ
وجِّه القلـبَ واللـــســـانَ إلـيه   بـيقــينٍ لا تلـتفـتْ للعـبـيـــدِ
واجعل المصطفـى الحبيبَ غيـاثـاً   فهـــو أولى مـن والـــدٍ وجـــدودِ
واتخـــذْه أبـــاً رؤوفـــاً رَحـيـماً   وادْخُـلـنْ حـصنَهُ بعـــزمٍ أكـيـــدِ
يــا حبيبـيِ ونـــورَ قلبـــيَ إنِّـــى   أرتجـــى نـظـــرةً بعـينِ الـــوَدودِ
صلـــواتٌ عليك مَن ذاتِ ربِّـــى   نعطى منهـا الـرضـا بفضلِ مـزيـدِ

قال رضي الله عنه:

نعماكَ عن حصرِها قد يعجزُ العقلُ ... وبعد هذا يُوالَى الجذبُ والفضلُ

والشكرُ يا سيدى من فوقِ طاقتِناَ ... فكيفَ نشكرُ مالا يحصه القولُ

الخيرُ منك يوالينا وأنفسُناَ ... نزّاعةٌ قد دعاها الغىُّ والجهلُ

جوارحيِ نزعت للغىِّ جانحة ... لما يُلائمُها والباعثُ الميلُ

لم يكبحنْها وعيدٌ وهى جامحةٌ ... إلى المجُانس وهو الصدُّ والسفلُ

عجزتُ عن كبحِهاَ مولاى أدركنيِ ... وَزَكِّ نفْسى فَإنَّ النَّفسَ تنفعلُ

على يقينٍ بأنَّ الغىَّ يوبقُنيِ ... تولَّنى كنْ بِخيرِ الخلقِ أتَّصِلُ

أيام عمرى انقضتْ فى الفُحشِ فى ظلمٍ ... أغِثْ عُبَيداً على مولاه يتكِلُ

بغِّضْ إلىَّ المعاصى عَمَّرَنْ قلبى ... حتى أفِرَّ لنيلِ الوصل أرْتَحِلُ

العلمُ يهتفُ بالأعمالِ أبنائيِ ... ما قيمةُ العلم إن لم يظهر الفِعلُ

أعوذُ باللهِ من نفسى وجوارِحِهاَ ... إليه ألجأُ قصدى كلُّه الوصلُ

وجهتُ وجهى إلى مولاىَ مضطراً ... بدِّلْ خطاياى أو يهويِ بي العدلُ

أشكو إلى اللهِ نفسى زكِّها ربَّى ... وطهَّرنْها من الأوزارِ قدْ تسلوُ

مولاى خوفِىَ من فعلِ الجوارحِ قدْ ... أذابَ قلبى وبالغفرانِ قد أعلوُ

يَسِّرْ عطاياكَ رضواناً وعافيةً ... وخير نُعماك تُولى مِنك يتصلُ

هدايةً منك توفيقاً لما ترضى ... والخيرَ منك لأولادى به اتصلوُا

تم بحمد الله

الفهرس

الدرس الأول

التوبة والتائبون ٥

تعريف التوبة ٥

الندم توبة ٦

أقوال الصوفية فى التوبة ٧

التوبة النصوح ٨

خصال التوبة ٩

عمر العبد أمانة ٩

علامة صدق التوبة ١٠

حقيقة التوبة ١١

المعصية ظلمة فى القلب ١١

مراتب الكفر ١١

مجالسة التوابين ١٢

درجات التوبة ١٣

١- التوبة من الذنب ١٣

٢- التوبة من التوبة ١٤

التوبة عمل من أعمال القلوب والجوارح ١٤

صور التظاهر بالتوبة ١٥

التائبون ١٦

التائبون تخلقوا بالقرآن ١٧

التائبون أسرع استجابة لأوامر القرآن ونواهيه ١٨
التائبون أهل القرآن ١٨
التائبون يمشون على الصراط ١٩
التائبون يفرون مما يؤدى إلى غضب الله وسخطه ٢٠
التائبون وتلاوتهم للقرآن ٢٢
التائب يعقل أمر الله ونهيه ٢٢
قصائد فى التوبة ٢٤

الدرس الثانى

العبادة والعابدون ٢٨
تعريف العبادة ٨٤
العبادة الخالصة ٢٩
العبادة رعاية الأدب مع الله تعالى ٢٩
العبادة أساس خلق الكون كله ٣٠
العبادة أكمل أعمال القلوب والجوارح ٣٠
العبادة روح الأعمال ٣١
العبادة مقام المحبوبين ٣١
أركان العبادة ٣٢
أنواع الأعمال فى العبادة ٣٢
أحوال الإنسان فى العلم ٣٢
مراتب العلم ٣٣
أقسام العبادة ٣٣
حكمة العبادة ٣٤

الأمراض التى لا يمكن إزالتها إلا بالعبادة ٣٦
بالعبادة طهرة للقلب ٣٦
بدون العبادة تبقى النجاسات ٣٧
حكمة وجود النوازع فى الإنسان ٣٧
الفضيلة وسط بين رذيلتين ٣٧
إصلاح قوى الإنسان ٣٨
متى تتحقق صفة العبادة ٣٩
حقيقة التعصب للدين والعبادة ٤٠
أوصاف الداعى إلى الله ٤٠
أقسام العبادة ٤١
أولاً: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ٤١
العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها ٤١
التسليم والإيمان شرط فى كمال الإسلام ٤٢
كل إنسان مؤهل لمعرفة تحصل بها النجاة ٤٣
من لم يجعل الله له نوراً ٤٤
الطريق الموصل للخير الحقيقى ٤٤
أساس العقيدة ٤٥
ثانياً: إقام الصلاة ٤٦
المقصود من الطهارة ٤٧
المحافظة على الصلاة ٤٧
صورة الصلاة ٤٨
الإخلاص فى الصلاة من المحافظة عليها ٤٩

جوابر الغفلة فى الصلاة ٤٩
رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ٥٠
أسرار فى الصلاة ٥١
ثالثاً: إيتاء الزكاة ٥٢
الأمور التى يجب المحافظة عليها فى الزكاة ٥٣
رعاية الصلاح أصل فى العبادة ٥٤
من رموز الزكاة وأسرارها ٥٤
من غوامض أسرار الزكاة ٥٦
تزكية النفس أصل الأصول ٥٦
رابعاً: صوم رمضان ٥٧
الصوم تجمل بجمال الروحانيين ٥٧
خصوصية الصوم ٥٨
درجات الصوم ٥٨
أسرار الصوم ٥٩
خامساً: حج البيت ٦٠
مشاهد الحج ٦١
آداب الحج ٦١
أسرار الحج ٦٢
قصائد فى العبادة ٦٤
الفهرس ٦٨

almashahed
www.almashahed.com